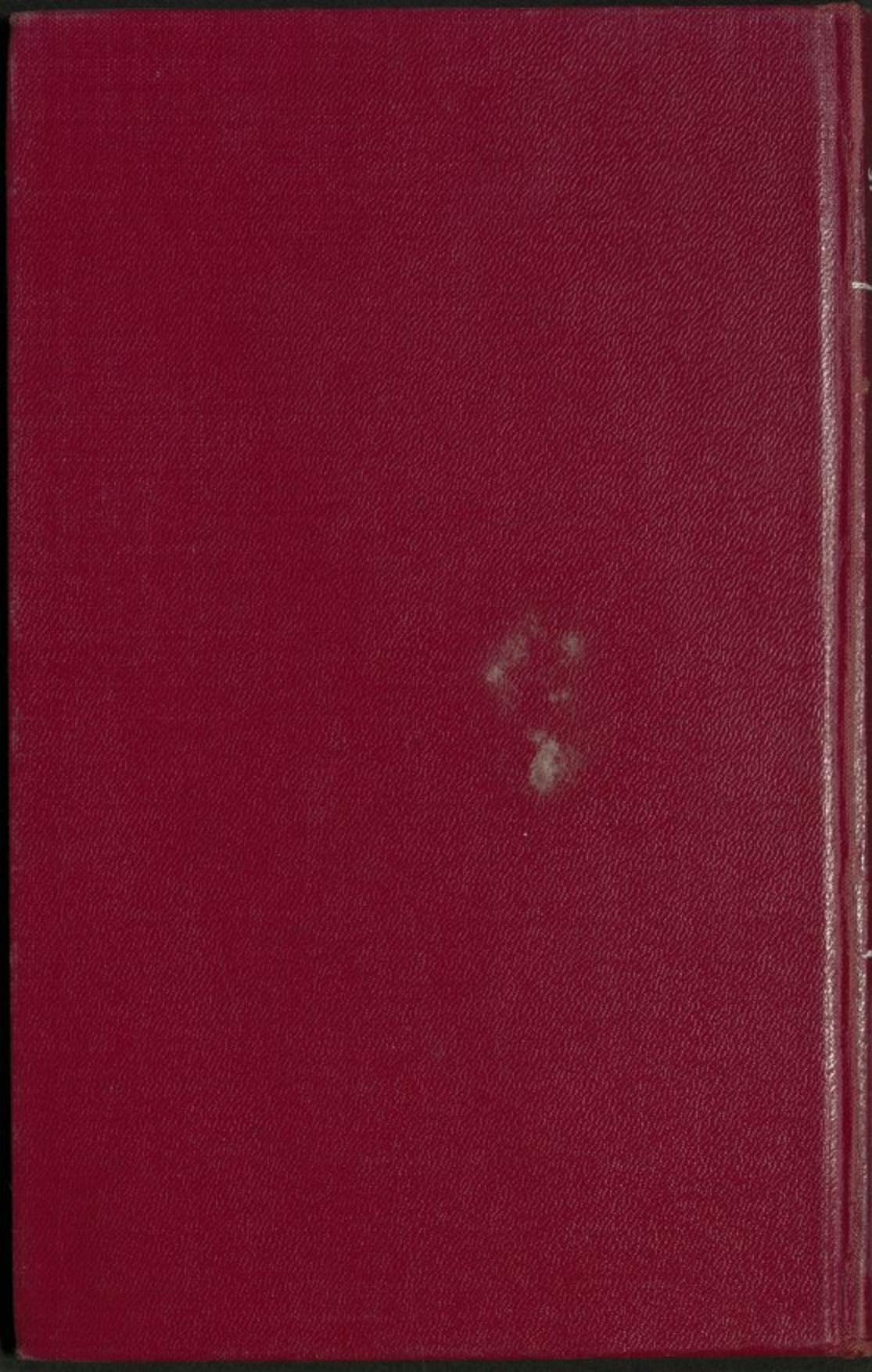


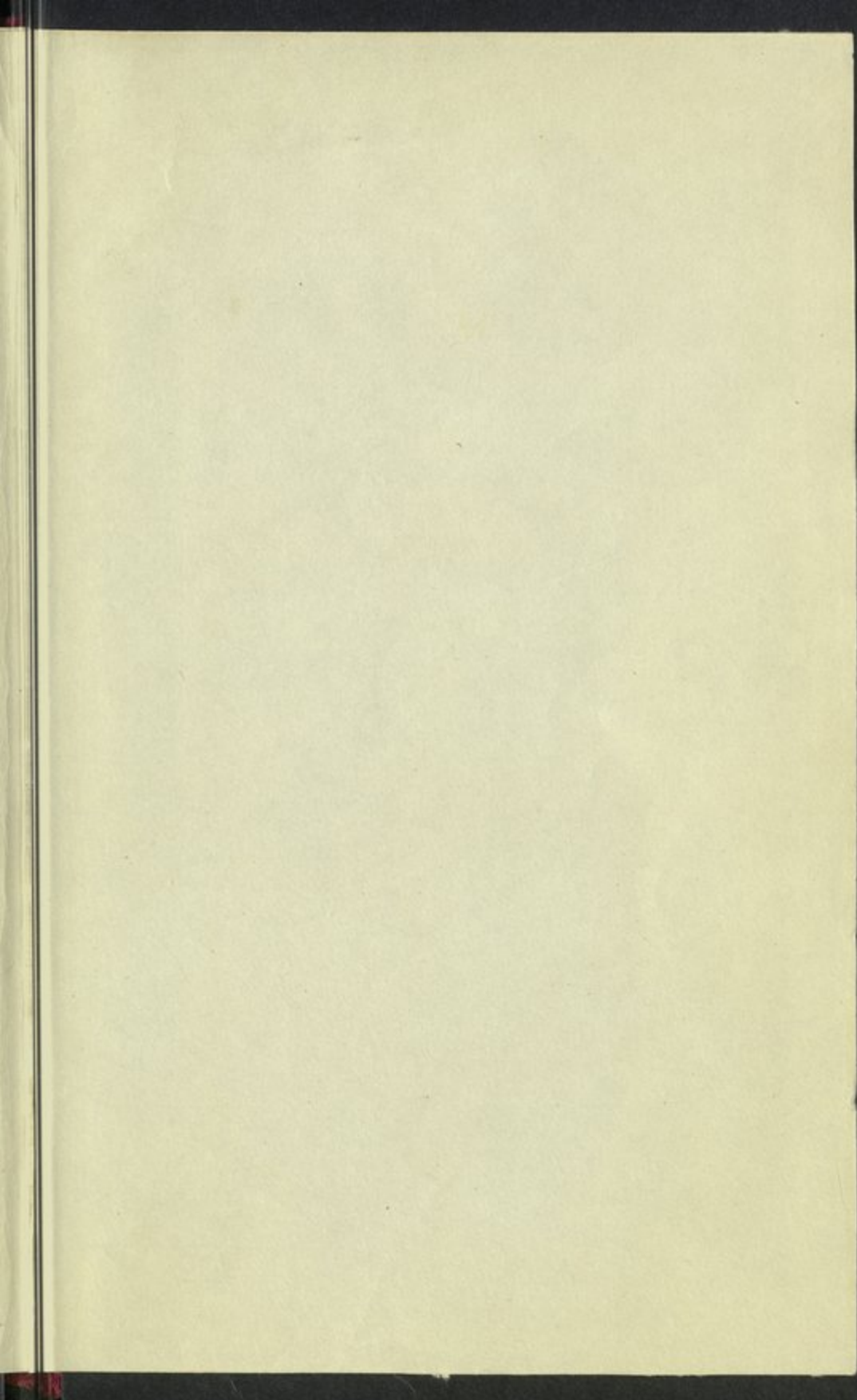


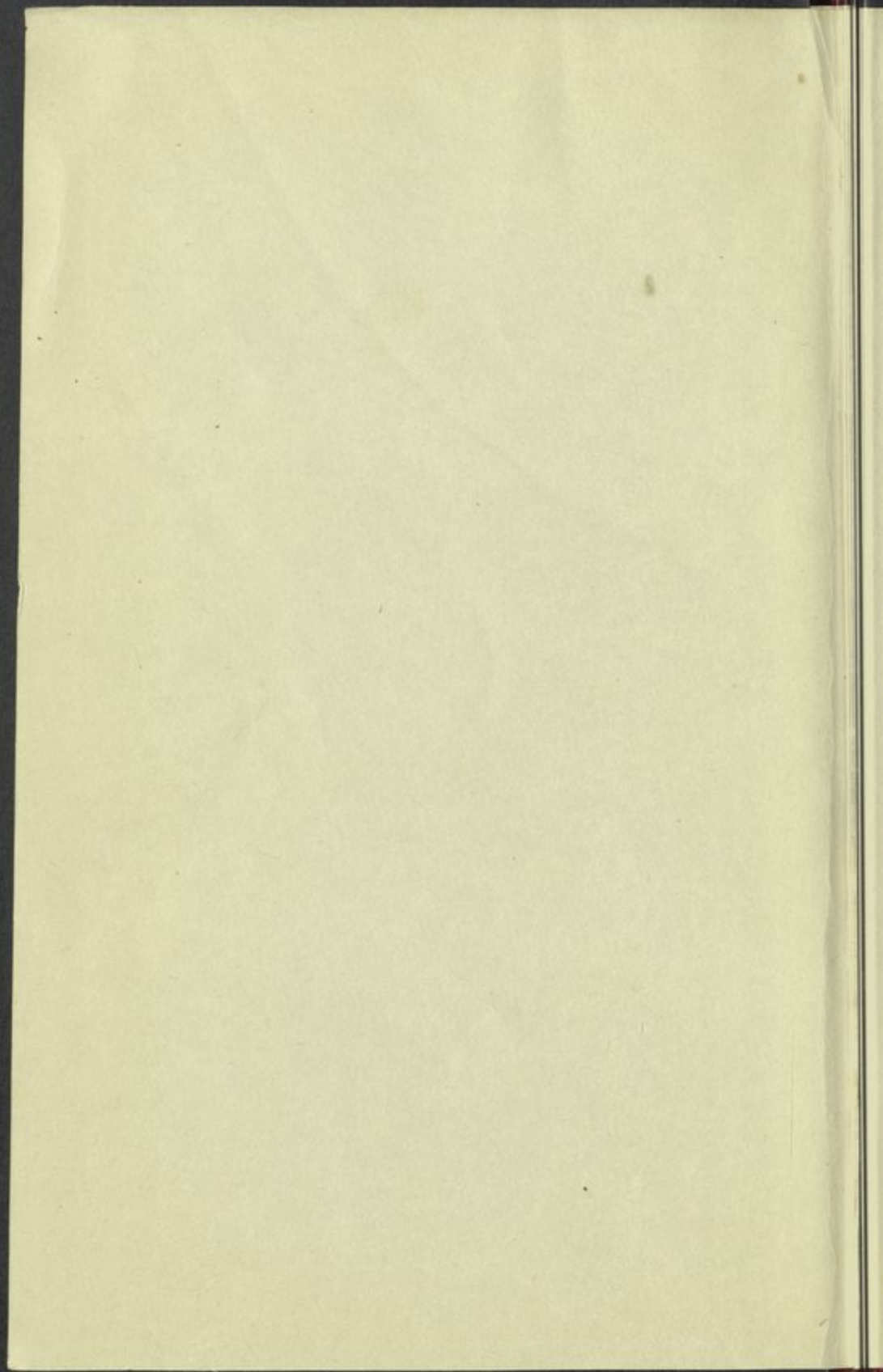
AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

N. MAKHOUL
BINDERY

2 SEP 1972

Tel. 260458







A. S.

812.48

848
C785poA
1938
c.1

رواية

فسيبيل السائح

بقلم المرحوم

مصطفى لطفى المنفلوطي

وهي خلاصة رواية تمثيلية بهذا الاسم للكاتب الفرنسي الشهير

فرنسوا كوييه

مع بعض تصرف

تطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر

لصاحبها: مصطفى محمد

[حقوق الطبع محفوظة]

79575

الطبعة السادسة

مطبعة الاستقامة بالقاهرة

١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م

East. Nov. 52



إهداء الرواية

إلى البطل المصرى العظيم

سعد زغلول باشا

« تشرح هذه الرواية سيرة بطل من أبطال الوطنية العالية ،
 « قد جمع الله له من صفات الشجاعة والثبات والعزيمة ،
 « والغيرة والاخلاص والتضحية ما جمع لك منها ، فأنذني لي
 « أن أهدى روايته إليك ، وأن أقدم البطل البلقاني ،
 « إلى البطل المصرى ، لتأنس روح كل منكما بروح صاحبه ،
 « وإن باعدينيكما الزمن ، واختلفت بيكما الدار ، فإن تفضلت
 « بقبول هديتي وما أحسبك ضائعا بذلك على فلتسكن جائزتي
 « عندك عليها أن تشهد لي بينك وبين نفسك أنني قد
 « وضعت لينة^(١) صغيرة في ذلك البناء الضخم الذى شدته
 « لآمتك ووطنك ، وحسبى ذلك وكفى »

مصطفى لطفي المنفلوطي

أول يونيو سنة ١٩٢٠

(١) اللينة واحدة اللبن ككلمة وكلم وهو المضروب من الطين مرهبا للبناء .

الحمد لله
الرجيم

الحمد لله
الرجيم

بالح
ع

مقدمة

لحضرة الكاتب الشهير حسن بك الشريف

انصرفت عقول الكتاب والمفكرين في هذه الأيام
وفي جميع البلاد إلى الاشتغال بالمسائل السياسية والمشاكل
الاجتماعية التي أوجدتها الحرب الأخيرة وانصرفت الأقلام
وراء العقول تحاول إنارة السبيل لقادة الشعوب عليهم يستطيعون
إقالة هذا العالم من عثرته .

ولقد كان من جزاء ذلك أن أهمل الأدب إهمالا نزل به
إلى مرتبة دون التي كان يشغلها في نفوس القراء والمؤلفين
فانحط التأليف الأدبي انحطاطا قد يستمر مااستمرت حالة
العالم على ما هي عليه .

ولم يكن تأثير هذه الأزمة الأدبية في مصر بأقل منه
في غيرها إذ انصرف معظم الأدباء عن فهم وعلى الأخص
في السنة الأخيرة إلى الاشتغال بقضيتنا السياسية الكبرى
فانقطع ظهور الكتب الأدبية أو كاد وأوشكت مسارح التمثيل
أن تغلق أبوابها لقلة ما يقدم إليها من الروايات ، ورأت
صحف الأدب أن لا يبقا لها إلا إذا ولت وجهها شطر

السياسة فوقفت جل أعمدها على شرح وتأويل ما يحمله إلينا
البرق من الأخبار ، وبذلك وقفت نهضتنا الأدبية منتظرة
أن تمر العاصفة وتصفو السماء فتستأنف سيرها ويعود إليها
عزها ونشاطها ، بيد أن العناية الساهرة على الفنون قد أبت
أن تذبل شجرة الأدب في مصر ولما تينع أزهارها فلم تدع
السياسة تستأثر بأقلام جميع الكتّاب بل أبقت للأدب أئمة
وأنصاره فلم يؤنسهم شغف الجمهور بسياسة العالم وانصرافه
عن كل ماعداها وظلوا رافعين لواء فنهم في وسط الزوابع
والإعصار عالمين أن الأدب أفيد غذاء لروح الأمة وعقلها
وأكبر مذهب لإحساسها وشعورها .

في طليعة هذا النفر من أئمة الفن وخدامه لا أتردد
في ذكر اسم السيد مصطفى لطفى المنفلوطى الذى لم ييخل
على قرائه العديدين بأويقات فراغه فوقفها على الكتابة
والتأليف ولم تحل أعمال وظيفته الحكومية بينه وبين أن يخرج
للناس بضع مؤلفات قيمة آخرها هذه الرواية الشيقة الممتعة
« فى سبيل التاج » التى نقدم اليوم طبعها الرابعة (٥) إلى جمهور
القارئ .

(٥) هذه الطبعة الأخيرة هى السادسة .

فرانسوا كوييه مؤلف « في سيديل التاج » شاعر عرك
صروف الزمان وجس بأصبعه مصائب الإنسان فلم تزد
قلبه مناظر البؤس والفاقة إلا ليناً وحناناً حتى إن القارئ
لا يرى في شعره إلا عبرة حارة أرسلتها عيناه إشفافاً وحنواً
على الذين تخطتهم السعادة وغضبت عليهم الحياة حتى لقبه
عارفوه بحق « معزى المنكودين والبائسين ، وشاعر الضعفاء
والمحزونين » .

ولد كوييه سنة ١٨٤٢ ولم تمسكنه بنيته السقيمة من تميم
دراسته فانقطع عن تلقى الدرس في معاهد العلم وانصرف
إلى قراءة الكتب والاطلاع على أوضاع الأقدمين ، وكان
يشعر بميل شديد غريزي إلى الشعر فنظم منه بضع قصائد
لم تصادف إعجاباً من الذين أسمعههم إياها ، فرأى أن النار
أحق بها من المطبعة فأحرقها ، وطلق الشعر وهجر الأدب ،
وسعى حتى حصل على وظيفة في الحكومة استولى عليها ظناً
أنه لم يخلق لصناعة القلم وأن رغبته في الشعر ما هي
إلا نزعة مفتون تصبو نفسه إلى مالا قبل له به ولا طاقة
له عليه .

بيد ان الفطرة ما لبثت حتى غلبت اليأس في نفس الشاب فعاد إلى القصائد ينظم منها اليوم ما يمزقه في الغد حتى وفق لكتابة صندوق البقايا المقدسة (Le Reli Puaire) ونشره بين الناس فصادف رواجاً وإقبالاً شجعاه على الاستمرار والمثابرة ، وزاده تشجيعاً أن صارت بعض منظوماته تتلى على المسارح وفي الحفلات ، وما زالت شهرته تنمو حتى اهتمت بشأنه إحدى الممثلات الشهيرات (مدام أجار) ورأت فيه قابلية للتأليف التمثيلي فنصحت إليه بكتابة شيء للمسرح فعمل بنصيحتها وكتب عابر السبيل (Le passant) وهي رواية ذات فصل واحد ما كادت تظهر حتى تخاطفتها المسارح ومثلتها سارا برنار فطار صيت المؤلف الشاب وذاعت شهرته وأقبل عليه مديرو المسارح يلتمسون منه المزيد .

ومن سنة ١٨٦٨ نشر كتاباً شعرياً متتابعة أهمها المودات (Intimités) واعتصاب الحدادين ، والمتواضعون ، وبعض قصص نثرية منها المجرم (Toueune) وشبوية (jeunesse) وكثير من الروايات التمثيلية نخص بالذكر منها عواد كريمون (Le Luthier de Grémone) و « مدام ده مانتنون » و « سيفيرو نوريلي » و « في سبيل التاج » .

وفي عام ١٨٨٤ انتخب عضوا بمجمع علماء فرنسا
ثم انكب على السياسة وسار فيها شوطا بعيدا كاد ينسيه
الشعر والأدب وتوفي سنة ١٩٠٨ وهو رئيس فخرى لجمعية
الوطن الفرنسية.

هذا ملخص حياة ذلك الشاعر النابغة الذي امتاز على
أقرانه بأنه لم يقلد أحدا من الأوائل ولا من المعاصرين
(والتقليد يكاد لا ينجر منه شاعر من الشعراء) وبأن معظم
المواضيع التي طرقها كانت إلى عهده جديدة لم يتقدم إليها قبله
أحد من المؤلفين. ولقد قال عنه أناتول فرانس مامعناه :

« إن نفثات قلم هذا الشاعر قد أثرت في جميع القلوب
وتمسكنت منها، لأن أساسها الطبيعة، وأحسن ما يبرع في الكتابة
عنه ويوصل فيه إلى أعلى طبقات البلاغة ما كان له مساس
بالمشاعر والأخلاق الاعتيادية والحقائق الواقعة. وهذا النوع
من الكتابة لا يتيسر إلا لأصحاب الأذواق السليمة والذكاء
المتوقد الخارق وهو يحتاج إلى مهارة فائقة وبراعة زائدة ،
فإن أقل خطأ فيه لا يلبث أن يبدو للعيان مجسما وإنه
وإن كان في استطاعة كل إنسان مهما كانت منزلته من العلم
أن يفهم هذا الشاعر ويتأثر بأغراضه ومراميه ولكن

لا يستطيع أن يسبر كنهه ويتذوق طعم أدبه إلا من رزق
حظا وافرا من العلم والذوق السليم، وبالجملة فقراء هذا
الشاعر العظيم كثيرون جدا ومن جميع الطبقات ولكن
قراءه الحقيقيين قليلون .

* * *

أما رواية « في سبيل التاج » التي نحن بصدددها فمأساة
شعرية تمثيلية وضعها المؤلف في سنة ١٨٩٥ وأراد أن
يجارى بها عميدى الشعر التمثيلي في القرن السابع عشر: كورنى
وراسين وهى رواية أخلاقية بطلها قى تعارضت فى نفسه
عاطفتان قويتان : حب الأسرة وحب الوطن؛ فضحى الأولى
فداء للثانية ثم ضحى حياته فداء لشرف الأسرة ، ولقد تجلت
فى هذه المأساة عبقرية الشاعر ومواهبه الكبيرة ، فالأسلوب
سهل ممتع والأفكار متسلسلة متماسكة والوقائع جلية واضحة ،
وأخلاق أشخاص الرواية تفسرها أقوالهم وحركاتهم فلا غموض
فيها ولا إبهام .

ولقد ذهب النقاد فى تقدير هذه المأساة مذاهب شتى
حتى قال بعضهم : إنها خير ما أخرج للناس من عهد راسين
إلى يوم ظهورها .

قال الأستاذ إميل فاجيه العضو بالمجمع العلمي الفرنسي
عن هذه الرواية في الجزء الثالث من كتابه «آراء في التمثيل»
ما معناه :

إذا نظرنا إلى ما في الفصول الثلاثة الأولى من القوة
والمثانة والوضوح مع البيان والبلاغة وحسن التصوير : أمكننا
أن نحكم بأن هذه الرواية ستمثل إلى ما شاء الله بدون أن
يملها الجمهور أو يشعر بسأم من سماعها وأن فرانسوا كويه
بكتابه للفصل الثالث منها على الأخص قد ضمن لذكره
الخلود في ذاكرة الأجيال المقبلة ، وهو الفصل المعنون
في التعريب بعنوان « الجريمة » .

وقال الأستاذ جول لومتر العضو بالمجمع العلمي الفرنسي
في الجزء التاسع من كتابه «خواطر في التمثيل» بعد أن أظن
في وصف شاعرية كويه وفي تقدير مواهبه : إن رواية
« في سبيل التاج » لم تكن من صنع قبيح وقدير وشاعر عظيم
ورجل ذكي ضمير حي وقلب كبير ، وإذا كان فيها بعض النقص
فهذا النقص لم يخل منه كورني ولا فيكتور هوغو ولا غيرهما
من كبار الفنانين .

وقال في موضع آخر من نفس الكتاب : إن المشاهد
لتمثيل رواية « في سبيل التاج » ليشعر منه الهنيئة الأولى براحة

واطمئنان ثم لا يلبث حتى يتأكد أنه سيشاهد عملا متقنا وفنا نظيفا ، ولقد يكون أحسن ما في هذه القطعة تنسيق الأفكار وتحليل العواطف وترتيب الحوادث وتصوير النفوس والأشخاص .

هذا رأى كبيرين من زعماء الحركة الأدبية في فرنسا نوره هنا ليعلم القراء منزلة هذه الرواية من نفوس الأدباء في الغرب ومبلغ تقديرهم لمؤلفها .

ولقد تناول السيد مصطفى لطفي المنفلوطي هذه المأساة ونقل موضوعها إلى اللغة العربية في قالب روائى جميل بعد أن أضاف إليها أشياء وحذف منها أخرى وأخرجها لقراءه قصة يستهوى أسلوبها القلوب وتسترعى وقائعها الالباب بقلم عذب وعبارة رقيقة وديباجة بديعة لانطيل الكلام في وصفها لأن قراء العربية جميعا يعرفونها لهذا الكاتب العظيم ويعترفون لها ، ولم يفته أن ينقل إلى العربية قطعاً كاملة من الرواية يستطيع القارئ أن يتبين منها قوة المؤلف ، ومع أن الرواية ملخصة تلخيصاً فقد استطاع الكاتب بمهارة فائقة أن يصور الروح الأصلية للمؤلف تصويراً مؤثراً وأن يملك من نفوس قراء العربية ما ملئته فرانسوا كويه من نفوس قراء الفرنسية .

ولا يفوتنا هنا أن نقول إن الكاتب قد اشتغل بتلخيص هذه الرواية في إبان الحركة الوطنية الأخيرة ، ولقد أوحى إليه الحوادث السياسية التي لاتزال ماثلة في الأذهان صفحات تفيض وطنية وغيره حتى لسكانه قد أفضى إلى أمته في هذا الكتاب بكثير مما لا يستطيع كتابته في الصحف السياسية ، والحق أقول إننا كثيرا ما كنا نعتب عليه في سكوته عن الاشتراك بقلبه مع العاملين في هذه الحركة حتى قرأنا هذه الرواية فإذا روحه الوطنية الشريفة تسيل فوق صفحاتها سبيلا وإذا الرواية رواية الحركة الحاضرة بجميع ظروفها ومتعلقاتها .

وبالجملة فرواية « في سبيل التاج » كتاب الوطنية الخالدة في ثوب قصة خيالية تملك لب القارئ بجماها وتولى تهذيب نفسه بأدابها وفضائلها ، وما أحوجن أن تجرى الأقلام الأدبية في هذا العصر بمثل ما جرى به قلم السيد المنفلوطي في هذه المسألة المؤثرة ليتلقى النشء الحديث دروس وطنيته من طريق العواطف والوجدان ، وقلما تصل الوطنية إلى أعماق القلوب وتتغلغل في شغافها إلا من هذا الطريق ؟

حسن الشريف

أول يونيه سنة ١٩٢٠

مقدمة

لا يزال التاريخ يحفظ في صفحاته حتى اليوم تلك الوقائع
الحرية الهائلة التي وقعت في القرن الرابع عشر بين الدولة
العثمانية والشعوب البلقانية أيام أغارت الأولى على الثانية
تريد افتتاحها والاستيلاء عليها فدافعت الثانية عن نفسها
دفاعا مجيدا استمر زمنا طويلا حتى غلبت على أمرها فسقطت
في يد القوة القاهرة ودخل الترك أرض البلقان وحولوا
كنائسها إلى مساجد وفرضوا على أهلها الإتاوات الثقيلة
وعزلوا ملكها الذي كان يحاربهم ويناوهم وملكوا عليها
ملكاً من أهلها اسمه ميلوش فلبثت في حكم الأتراك عهداً
طويلاً عانت فيه من ضروب الذل والهوان ما يعانیه كل
شعب مغلوب على أمره ، حتى قبض الله لها رجلاً من
رجال الدين المخلصين اسمه الأسقف أنين عز عليه ضياع
بلاده وسقوطها في يد أعدائها وأن تتحول فيها الكنائس
إلى مساجد وتجأ في أرجائها أصوات المؤذنين بدلاً من
أصوات النواقيس وألا يجد المسيحيون في عُقر ديارهم
مكاناً يؤدون فيه فروض صلواتهم غير الصحارى والفلوات

فأخذ يتنقل في أرجاء البلاد ويمشى بين شعوبها وقبائلها يدعو باسم الدين مرة والوطنية أخرى ويستنهض همم الرجال للدفاع عن وطنهم وتحرير بلادهم من يد ذلك القاهر المغتصب حتى جمع كلمة الأمة كلها من حوله على اختلاف عناصرها ومذاهبها . وكذلك تتفق كلمة الأمة أمام الخطر الداهم والقضاء الشامل .

ثم أشار على ملكه أن يخلع طاعة الترك ويطرد رعاياهم من بلاده ويمتنع عن دفع الجزية والإتاوة وينادى بحرية البلقان واستقلاله ، فجبن الملك عن ذلك في أول الأمر ثم أسلس له وأذن لرأيه ففعل ما أشار به عليه ، فأحقد ذلك الترك وآسفهم واستثار حقدهم وضغيتهم فوجهوا إلى البلاد البلقانية جيشا عظيما وافر العدة والعدد بقيادة أحد أبطالهم العظام أُرْطُغرُل باشا ، فثار البلقانيون جميعا رجالا ونساء للدفاع عن انفسهم والذود عن وطنهم واختاروا لقيادة جيشهم القائد البلغاري العظيم الأمير ميشيل برانكو مير فظل يحارب الأتراك عدة أعوام يُدال له عليهم فيها ويدال لهم عليه ، ولكنهم لا يستطيعون اجتياز حدود بلاده وافتحام جبالها حتى عي القائد التركي بأمره ورأى أن لا حيلة له فيه إلا من طريق الدسيسة والكيد ، وكذلك فعل .

الجالسوس

اجتمع جنود الفرقة البلقانية الاولى ذات ليلة في معسكرهم
 يشربون ويطربون ويرقصون على نغم قيثار الموسيقى
 البوهيمى المسكين «بانكو» الذى كان يفد إلى معسكرهم كل
 ليلة يغنيهم قطعاً حماسية مؤثرة يذكرهم فيها بمجد وطنهم
 وتاريخه العظيم فيرقصون على غناؤه ويطربون ويحسنون إليه
 بما فضل من زادهم وشرابهم ، ثم جلسوا بعد فراغهم
 يتحدثون في شأن ذلك الحادث العظيم الذى حدث في بلادهم
 منذ أيام وهو موت الملك ميلوش وعزم الجمعية الوطنية على
 الاجتماع للنظر فيمن يخلفه على العرش من بعده ، فانقسموا
 في رأيهم قسمين : فريق يرى اختيار الأسقف أتين ،
 وفريق يرى اختيار القائد برانكو مير . فقال الجندي الرومانى
أورش وهو من أشياع الأسقف وأنصاره : نعم إن النصر
 قد تم لنا على يد قائدنا العظيم ميشيل برانكو مير واسكن من
 الذى مهد له النصر وأعد له عدته قبل أن يعقد له اللواء
 على الجيش ؟ أليس الأسقف أتين ؟

من الذى ينكر أن ذلك الرجل التقى الصالح هو الذى
 طاف البلاد من أقصاها إلى أقصاها عشرة أعوام كاملة

يستنهض الهمم ويستثير حفائظ النفوس ويستحي ميت
العزائم ويهيج عاطفة الثأر والانتقام في نفوس الرجال والنساء
والفتيان والفتيات) ويُلقى على تلاميذ المدارس في مدارسهم
أناشيد الحرية والوطنية فيستظهرونها مع دروسهم ويتغنون بها
في مسارحهم وملاعبهم ومغدهم ومراحهم ؟

من الذى ينسرك أنه هو الذى علم الشعب البلقاني دروس
الوطنية الشريفة العالية وغرس في قلوبهم أن الحياة الذليلة
خير منها الموت الزؤام ، وأن الحرية حياة الأمم وروحها ،
والرق موتها وفناؤها ، وأن الأمة التى ترضى بضياع حريتها
واستقلالها وتقبل أن تضع يدها في يد غاصبها إنما هى أخط
الأمم وأدناها وأحقها بالزوال والفناء ؟

ولم يزل يفيض على نفوسهم من نفسه تلك الروح
الوطنية العالية ويملى عليهم أمثال هذه الآيات الذهبية الشريفة
حتى صفت ضماثرهم من أدران الذل والمهانة ، وأدركوا من
معنى الحياة ما لم يكن يدركه آباؤهم من قبل ، فأصبحوا
كما تراهم اليوم حماة الوطن وذادته يبذلون في سبيله من ذات
أيديهم وذات نفوسهم ما لا يبذل مثله إلا الأمم الراقية
الشريفة في سبيل الذود عن مجدها والدفاع عن حريتها
واستقلالها ويتقدمون إلى الموت زرافات ووحدانا فرحين

متهمين كأنهم ذاهبون إلى مراقص « فيدين » وملاعبها ،
لأنهم يعلمون أن قطرات الدماء التي يسيلونها في سبيل
حريتهم واستقلالهم إنما هي المداد الأحمر الذي تسجل لهم به
في صفحات تاريخهم آيات المجد والفخر ، وأن الأشلاء
التي ينثرونها في تربة وطنهم ثم يسقونها من دماهم إنما هي
البذور الطيبة التي تُنبت لبلادهم المستقبل الحر الشريف .

من منا يجهل أنه هو الذي استطاع وحده من بين أبناء
البلقان جميعاً أن يقف أمام ملكه وقصة الأسد المحصور
ويصبح في وجهه قائلاً له : حتى متى أيها الملك الضعيف
المهين تباع وطنك وأبناءه لأعدائك وأعدائه يسع السلع
المعروضة في حوانيت التجار بأبخس الأثمان وأدناها ؟
والأم تضع هذه السلاسل والأغلال في أعناق أبناء أمتك
لتقودهم بها إلى حيث يرغبون جباههم الشريفة تحت مواطئ
أقدام ذلك العدو المغتصب صاغرين ضارعين ثم تزعم بعد
ذلك أنك ملك عظيم جالس على عرش شريف ، ولو حققت
أمرك لعلمت أنك نخاس ذئب يبيع الرقيق في سوق النخاسة ،
بل أدنى من نخاس ، لأن النخاس لا يتجر في أبناء أمة
ولا في أفراد أسرته ؟ فاهتز الملك لكلمته هذه اهتزاز القصة
الجوفاء بين مهاب الرياح وطأ طأ لها رأسه إجلالاً وإعظاماً

ولم يلبث أن عزم عزيمته الشريفة التي ترونها اليوم والتي
أنقذت الوطن من العار، ورفعته إلى ذروة المجد والفخار .
وهنا ضج القوم جميعاً ضجة السرور والاستحسان وصاحوا
أحسن يا أورش ، أحسن لإحسانا عظيماً ، إلا نفرًا قليلاً
من أشياع القائد وصنائه فإنهم امتنعوا لهذه الكلمة
وغصوا بها ، وقام أحدهم واسمه لازار ، وكان الحارس الخاص
لقصر القائد وأمينه وموضع ثقته وثقة زوجته الأميرة بازيليد
وطلب الإذن في الكلام فأذنوا له فقال : إني لأريد
أن أعترض على صديقي أورش في كلمته التي قالها في فضل
أسقفنا العظيم وأثره الجليل في خدمة الدين والوطن ، ولكن
الذي أراه وأستصوبه أن لرجال الدين شؤوناً خاصة بهم
لا يحمل بكمالاتهم أن يتعدوها إلى غيرها من أعمال الحياة ،
وإني أضنّ بأسقفنا العظيم أن تشغله مشاغل الملك وملاهيته
عن شؤون الدين التي تصبو لها نفسه طول حياته ، والرأى
الذي أراه أن يعهد الملك إلى القائد ميشيل برانكو مير ليقود
الأمة جميعها بتلك السياسة الحكيمة الرشيدة التي قاد بها
الجيش ورفعه إلى مناصب السماك الأعلى : فاعترضه جندي
كان جالساً على مقربة منه وقال له ولم لا تضنّ بالقائد
ميشيل أن تشغله مشاغل الملك وملاهيته عما هو بسبيله من

قيادة الجيش وتدبير شؤونه ؟ فأجاب : إن قيادة الجيش وزعامة الملك أمران متشابهان لأنهما يتعلقان بشؤون الحياة وأعمالها ، أما الشؤون الدينية فلا علاقة لها بالشؤون الدنيوية بحال من الأحوال ، فدعوا الكاهن مستريحا في معبده مستغرقا في صلواته وعباداته واختاروا الملككم رجل الأمة وبطلها وحامى ذمارها وحماها الأمير برانكومير . فعلت أصوات الصاخبين والصائحين والمستحسنين والمستعجنين ؛ وذهب كل في صيحته المذهب الذى يراه ويتشيع له .

وإنهم لسكذلك إذا بصوت صارخ في وسط هذه الضوضاء يقول استمعوا منى أيها القوم كلمة واحدة هى فصل الخطاب في قضيتكم هذه ولا أطلب إليكم أن تستمعوا منى سواها ، فالتفت الجمع فإذا الضابط ألبير وهو جندى شيخ عرف القائد برانكومير صغيراً وخدمه كبيرا وعاش معه في منزله في عهد زوجته الأولى كأنه أحد أفراد أسرته ، ولم يفارقه إلا منذ عامين اثنين : أى بعد وفاة زوجته بأيام قلائل ؛ فأنصتوا إليه فإذا هو يقول : أتمتعون جميعا صلتى بالقائد برانكومير ومكاتى عنده ، وإنى أعرف من شؤونه الخاصة والعامة ما لا يعرفه أحد غيرى ، ولقد عرفت فيما عرفت من خلائقه وبجاياه بعد تجربة عشرين عاما قضيتها في خدمته

أنه أبعد الناس جميعا عن مطامع الحياة ومظاهرها وأرغبتهم
عن سفاسف الأمور ودناياها، وأنه جندي صميم معتز بجنديته
وشظفها وخشونة العيش فيها لا يؤثر عليها أي مظهر من
مظاهر الحياة مهما علا شأنه وغلت قيمته ، فمن ظن منكم
أنه يرضيه ويجامله بترشيحه لمنصب الملك فقد أخطأ
في ظنه خطأ عظيما ، وإن كان للأسقف أتين مزاحم على
الملك بين أشراف البلقان وسادته فهو غير القائد برانكومير؛
فهدأت الأصوات وسكنت الضوضاء عند سماع هذه الكلمة
الهادئة الرزينة التي ينطق بها جندي شريف صادق ، وكادت
تكون فصل الخطاب في القضية لولا أن أورش - وهو ذلك
الجندي المتشيع الأسقف والداعي له - قد نهض من مكانه
مرة أخرى ونظر الى الجندي ألبير مبتسما ابتسامة الهزء
والسخرية وقال له : نعم ياسيدي إنك صادق فيما تقول
لم تزد حرفا على ما تعرف ولم تنقص ، ولكن ائذن لي
أن أقول لك إنك إنما تحدث في كلامك عن الماضي
القديم الذي حضرته وشاهدته ، أما الحاضر فلا تعرف منه
شيئا ، فإن أذنت لي حدثتك عنه وقلت لك إن الأمير
برانكومير اليوم غيره بالأمس ، وأن تلك النفس العالية المترفعة
التي كنت تعرف بالأمس مكانها من بين جنبيه قد استحالت

اليوم إلى نفس تواقفة متطلعة تصبو إلى المعالي وتفتن
بالعروش وأنه هو الذى يدعو نفسه إلى نفسه ويرسل الدعاة
في كل مكان لتأييده ومساعدته على نيل الملك ، فاستطير
البير غضبا وقال : أتريد أن تقول إن أخلاق قائدنا قد تغيرت
وأنه قد أصبح رجلا صغير السن متبذلا ؟ قال : لا ، مالى
هذا ذهبت ، ولكنى أريد أن أقول : إنه قد أصبح منقادا
في شؤون حياته لرأى غيره لا لرأى نفسه ، وربما لو ترك
وشأنه لكانت له في حياته خطة غير هذه الخطة التى ينتهجها
اليوم ؛ فانتفض القوم واضطربوا ونظر بعضهم في وجوه
بعض ومشت الهمسات بين الأفواه والآذان وسمع الخطيب
اسم قسطنطين يتردد مرارا في أفواه الهامسين فصاح في القوم :
أنتم مخطئون جميعا فيما تذهبون إليه ، فإن ابن قائدنا وزهرة
شيببتنا وضابط فرقتنا أعلى همه مما تظنون ، فصرخ لازار :
قل من هو الشخص الذى تريد ؟ فجلس أورش ولم يقل شيئا ،
إلا أنه همس في أذن جندي كان بجانبه « الزوجة الجديدة » ،
سرت هذه الكلمة بين الجموع سريان الكهرباء في أسلاكها
حتى بلغت مسمع الموسيقى بانكو ، فبرقت لها عيناه برق
الفرح والسرور ، لأنه لم يكن موسيقارا بوهيميا كما زعم ،
ولم يكن اسمه بانكو كما يسمونه ، بل هو الضابط المشهور

إبراهيم بك أحد أركان حرب القائد التركي العظيم أرطغرل باشا
وقد وجد في هذه الكلمة التي سمعها ما كان يريد أن يكون
وعثر بالثلمة التي ينحدر منها إلى أغراضه وآربه .

وما أوى القوم إلى مضاجعهم وأخذ النوم بمعاقد أجفانهم
حتى دب ذلك الجاسوس المتنكر على يديه حتى بلغ مضجع
الجندي لازار حارس قصر القائد وموضع ثقته وأكبر أشياع
زوجته وأنصارها فاضطجع بجانبه وظل يهمس في أذنه
ساعة طويلة كان يتردد فيها اسم الأميرة بازيليد زوجة القائد
الجديدة حتى تمّ لها الاتفاق على ما يريدان ، ثم أسلما عيونهما
إلى الكرى فناما .

قسطنطين

توفيت زوجة الأمير برانكو مير منذ عامين ، وكانت امرأة
من النساء الصالحات الفاتنات ذوات النفوس العالية والهمم
الكبرى ، فورث ابنها قسطنطين عنها هذه الأخلاق الكريمة
كما ورث عن أبيه صفات الشجاعة والعزيمة والصبر واحتمال
المكاره في سبيل خدمة الوطن والأمة ، فكان خير ابن لخير
أب وأم ، وكان يدأبه البني ودرعه الواقية الآمنة في جميع
وقائعه ومشاهدته حتى ذاع صيته في جميع أنحاء المملكة

وأجبه الشعب والجند حبا كاد يرفعه إلى ما فوق منزلة
أبيه لولا حرمة الأبوة وجلالُ الشيخوخة ومكانُ التاريخ،
فلما ماتت أمه تزوج أبوه من بعدها فتاة يونانية اسمها
بازيليد يقال إنها من سلالة قياصرة بزنطية « القسطنطينية »
وهي فتاة جميلة ساحرة تستوى القلوب وتختلب الأبواب
ذات نظرات غريبة لامعة يقضى المتفرس فيها حين يراها
أنها نظرات مريبة ألفت الاختلاب والافتتان من عهد
بعيد، فنزلت من قاب القائد الشيخ منزلة لم ينزلها منه أحد
من قبلها ولا من بعدها حتى زوجته الصالحة وولده النجيب،
فأصبح مستهما بها مستسلما إليها، لا يصدع إلا بأمرها،
ولا يصدر إلا عن رأيها، ولا يرى حلو العيش وجماله
إلا بجانبها، ولا يستروح رائحة السعادة والهناء إلا إذا هبت
عليه من ناحيتها . وكانت امرأة طموحا متطلعة لا يعينها
من شؤون حياتها إلا مظاهر السؤدد والعظمة، ولا يغلب
على مشاعرها وعواطفها إلا ذكرى تاريخ آبائها وأجدادها
ومصارع قومها في « بزنطية » بيد الأتراك الفاتحين، وكانت
لاتزال تتحدث في مجالسها العامة والخاصة بنبوءة قديمة تنبأ
لها بعض المتنبئين، ومجملها أن كاهنا عرافاً دخل منزل
أبيها وهي طفلة لعوبٌ لاتزال تحوم حول مهدها فنظر إليها

طويلا ثم قال لأمها : إن ابنتك هذه ستكون ملكة عظيمة
الشان في مستقبل أيامها . وربما كان اهتمامها بهذه النبوءة
واحتفالها بها وتصديقها إياها هو السبب في قبولها الزواج
من شيخ هرم مُدبر قلبا يعنى بمثلها مثالا على أمل أن
تحقق لها الأيام على يديه آمالها وأمانها .

فظلت تغرس في نفسه هذه الأمنية الجميلة المحبوبة مدة
من الزمان وتسقيها بماء حسنها وجمالها حتى ملأت بها
فضاء قلبه وشغلت به عن كل شاغل سواها .

ولم يزل هذا شأنها معه حتى مات الملك ميلوش .
وجاءت الساعة التي تنتظرها ، فتهافت به : ها قد حانت
الفرصة التي كنا نرقبها ، وها قد بدأت تتحقق نبوءة ذلك
العراف الخبير التي تنبأ لي بها ، وما هو بالكاذب ولا المتخرف ؛
ثم زجت به في طريق مزاحمة الأسقف أتين على الملك
فانقاد لها ومشى في الطريق التي رسمتها له وأخذ يدعو الناس
لنفسه ويستكثر من سواد أشياعه وأنصاره ويدخل أعضاء
الجمعية الوطنية ويداهنهم ويتوسل إليهم أن يساعده على
نيل أمنيته التي يرجوها مُدلا بمكانته من خدمة الأمة
والوطن وأيديه في الذود عنهما وبما بذل من صحته وشبابه

في مقاتلة الأعداء ومدافعهم تلك السنين الطوال حتى
اشتعل رأسه شيباً ولمست قدماه رأس المنحدر المؤدى إلى القبر .
هذا ما كان يشغل القائد وزوجته في ذلك التاريخ ،
أما ابنه قسطنطين فكان بمعزل عن هذا كله ، فإن وفاة
أمه التي كان يحبها حباً شديداً تركت في نفسه أثراً من
الحزن لا يلبى ، وهلات فضاء حياته هما ونكددا ، وكان يجد
بعض العزاء عن ذلك الهم الذي نزل به في حنان أبيه عليه
وعنايته به حتى تزوج من تلك المرأة اليونانية وأسلم إليها
نفسه وقلبه ففقد بفقد عطف أبيه عليه وحنان أمه كل
أمل له في الحياة ، وأصبح يشعر في نفسه بذلة اليتيم التي
يشعر بها أولئك المساكين المنقطعون الذين لا يجدون بين
أيديهم قلوباً راحمة ولا أفئدة عاطفة .

فكان يخاطر بنفسه في المعارك التي يحضرها مخاطرة
اليانس المستقتل راجياً أن يريحه الموت من هموم نفسه
وآلامها ، فزج بنفسه ذات يوم في معركة كبرى استبسل
فيها استبسالاً عظيماً واستقتل معه جنده يطلبون الموت حيث
يطلبه فلم يبلغ أمنيته التي يتمناها ، ولكنه انتصر في تلك
المعركة انتصاراً باهراً وأنقذ من يد الترك شعب «تراجان»
وكان الملجأ العظيم لهم والمركز الأكبر لحركاتهم وأعمالهم .

ولأنه ليتأثر الجيش المنهزم ويشهد في أعقابه إذ لمح على
 البعد فارساً تركياً قابضاً بيده على شعر فتاة مسكينة يريد
 اقتسارها وإكراهها على الركوب معه وهي تمتنع وتتأبى
 وتحاول الإفلات من يده فيضربها بسوطه ضرباً مؤلماً
 وجيعاً. فأنعج هذا المنظر وآلمه فركض جواده حتى أدرك
 ذلك الفارس فضربه على هامته بسيفه ضربة قضت عليه،
 فركعت الفتاة بين يديه ضارعة تسأله أن ينقذها من شقاءها
 ويقودها معه إلى حيث يشاء، فرثى لحالها وأحزنه منظرها
 دون أن يعلم من أمرها شيئاً فأردفها خلفه وركض بها
 حتى بلغ موضع الخيام فتركها بين الأسرى وعاد من تلك
 الموقعة ظافراً منصوراً يهتف الشعب ويهتف له في كل مكان
 يمر به حتى وصل إلى القلعة الكبرى فدخل على أبيه وألقى
 بين يديه الأعلام التي غنمها في المعركة فأمر برانسكو مير
 بقتل الأسرى وكان ذلك شأنه فيهم كلما قدموا إليه حتى جاء
 دور الفتاة فجثت بين يديه ومدت إليه يدها مستغيثة تطلب
 العفو وتقول له: إنها فتاة تورية مسكينة لاشأن لها في الحرب
 ولا علاقة لها بأهلها وإن أمها باعها منذ عامين من جندي
 تركي أساء عشرتها وعذبها عذاباً أليماً حتى قبض الله لها هذا
 القتي الكريم فاستنقذها من يده، وأشارت إلى قسطنطين.

فرجع قسطنطين بجانبها وسأل أباه العفو عنها وقال له :
إنتى قد أنقذت حياتها بالأمس فأنقذ أنت حياتها اليوم
واجعلها حصتى الوحيدة من الغنيمة وأعدك أنى لا أطلب
غنيمة سواها ، فأحفظ ذلك قلب الأميرة بازيليد زوج أبيه
وكانت حاضرة تسمع حديثه فنظرت إليه نظرة الازدراء
والاحتقار وكان هذا شأنها معه كلما التقت به وأنشأت تنمى
عليه اهتمامه بشأن فتاة تورية راقصة طريفة غابات وفلوات ،
وربيبة حانات ومعسكرات ، وقالت له : لقد كان جديراً بك
وأنت ذلك الجندى الشريف سليل ذلك القائد العظيم
والأمير الجليل أن تلقى بمثلها إلى حارس من حراس بابك
أو جندى من جنودك يتلهى بها كما يتلهى الكلب بالعظيمة
المطروحة تحت أرجله بدلا من أن تصل حياتك الشريفة
الظاهرة بحياتها الدنيئة الساقطة .

فثارت ثورة الغضب فى نفسه وأضغنه عليها هذا الرياء
الكاذب والشرف المتكلف وكان يعلم من شؤون نفسها
وخبائيا قلبها مالا تظن أنه يعرف شيئا منه فنظر إليها نظرة
شراء ملتهبة وقال لها وهو يعلم أن ماسيقوله سيغضبها
ويؤلمها ويملاً صدرها غصّة وحنقا : إن الله لم يخلق
الضعفاء والمساكين ليكونوا تراباً لنا تدوسه أقدامنا وتطؤونه نعالنا

كلما وجدنا إلى ذلك سبيلا ؛ ولم يمنحنا القوة والعزة لتتخذ
منهما أسواط عذاب نمزق بها أجسامهم ، ونستنزف بها
دماءهم ، وكل ذنوبهم عندنا أنهم أذلاء مستضعفون لا يملكون
من القوة والعزة مثل ما نملك ، ولا يزدودون عن أنفسهم بمثل
ما نذود .

وأحسب أنهم لو كانوا أقوياء أو أعزاء مثلنا أو أعز
وأقوى منا لحفناهم واتقينا جانبهم ونظرنا إليهم بعين غير العين
التي ننظر بها إليهم اليوم ، لأن القوى الذي يتنمر على الضعفاء
لا بد أن يكون جباناً ذليلاً أمام الأقوياء .

إننا الآن في حرب مع عدو قاهر جبار ننقم منه جوره
وظلمه واستضعافه إيانا واستطالته علينا بقوته وكثرته ، فحدير
بنا ألا نفعل ما ننقمه منه ونأخذه به ، عسى أن يرحمنا الله
وينظر إلينا بعين عدله وإحسانه ويتصفّ لضعفنا من قوته ،
وقلتنا من كثرته .

إننا لانهمل هذه السيوف على عواتقنا لنقتل بها النساء
والأطفال والضعفاء والعزل الذين لا سلاح لهم ولا قوة
في أيديهم ، بل لنقارع بها الأبطال والأكفاء في ميادين
الحروب ومواقف النزال .

إني لا أعرف شرفا غير شرف النفس ، ولا نسبا غير نسب الفضيلة ، وإن هذه البائسة المسكينة التي تحتقرونها وتزدرونها لم تصنع ذنبها بيدها ، ولا سعت إليه بقدمها ، بل هكذا قدر لها أن تنبت في هذا المنبت القدر الوبيء ، فوبئت وقدرت وليس في استطاعتها أن تعود إلى العدم مرة أخرى لتخلق نفسها خلقا جديدا في جو غير هذا الجو وتربة غير هذه التربة ، فما هو ذنبها وما هي جريمتها ، وأي حيلة لها في هذا المصير الذي ساقها القدر إليه ؟

إنما الإثم على الذين يقترفون الذنوب وهم يعلمون مكانها من الرذيلة ومكان أنفسهم من اقترافها ، ويحولون زمام حياتهم بأيديهم من طريق الخير إلى طريق الشر إيثارا لها وافتئانا بها ، أولئك هم الآثمون المذنبون الذين يجدر بنا أن نقسو عليهم ونشتد في وؤاخذتهم ، أما الضعفاء والمساكين الذين لا حول لهم في شأن أنفسهم ولا حيلة فهم برحمتنا وعطفنا أحق منهم بعتبتنا ولومنا ، فإن وجدنا السبيل إلى معاونتهم ومساعدتهم واستنقاذهم من وهدة الشقاء التي هؤوا فيها فذاك ، أولا فلندعهم وشأنهم تذهب بهم المقادير حيث شاءت من مذهبها ، ولا نزدحم بكبريائنا واستطالتنا بؤسا على بؤسهم ؛ وشقاء على شقائهم .

إننا ما أصبنا بما أصبنا به من هذه النكبة الشعواء والداهية
الدهياء التي نزلت بنا منذ عشرة أعوام ما تفارقنا ولا تهدأ
عنا ، إلا من ناحية كبرياتنا وخيلاتنا واعتمادنا بأنفسنا في جميع
شؤوننا وأعمالنا ، واحتقار غنينا لفقرنا ، وقوينا لضعفنا ،
وسيدنا لمسودنا ، فساط الله علينا ذلك العدو القاهر الذي
لا يعتمد في جميع شؤونه ومواقعه إلا على قوته وأيده ، لأننا
لم نعتمد في يوم من أيام حياتنا في جميع صلاتنا وعلائقنا
إلا على قوتنا وأيدنا ؟ والجزاء من جنس العمل ، وما ظلمهم
الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

فاصفر وجه بازيليد واربدت شفتاها وكأنها خيل إليها
أنه يلزها ويزنيها ويشير في حديثه إلى ماضيها القديم وحوادث
صباها السالفة ، فصمتت ولم تقل شيئا إلا أنها اتحت ناحية
وأخذت تبكي وتنتحب ، والدموع هي السلاح الوحيد الذي
تعتمد عليه المرأة في جميع شؤونها وعلائقها ، فعظم الأمر
على برانكو وير وأكبر أن يخاطب ولده زوجته المحبوبة هذا
الخطاب الجافي الغليظ فأنحى عليه باللائمة الشديدة وقال له :
إنك لم تسيء إلى نفسك في تنزلك إلى حماية هذه الزورية الساقطة
واهتمامك بشأنها بقدر ما أسأت إلى أيك في مجابهة زوجته
ومغايظتها وسوء الرد عليها بهذه اللهجة الشديدة القاسية ،

ولولا هذه الرايات الحمر التى ألفتها اليوم تحت قدمى بأهلها
البيضاء لما اغتفرت لك هذه الجريمة التى اجترمتها ، فاذهب
لشأنك ولا تعد إلى مثلها .

وكذلك تم لقسطنطين ما كان يريد من إنقاذ تلك
الفتاة المسكينة من يد الموت بعد ما أنقذها من يد الشقاء ،
فذهب بها إلى الجناح الذى يسكنه من القلعة وجلس إليها
يحادثها فى شأنها وشأن ماضيها ويسألها عن دينها ومذهبها
ووظيفها وقومها فلم ير بين يديه إلا فتاة ساذجة جاهلة
لا تعرف لهاوطنا ولا بيئة ولا تدين بين من الأديان
ولا مذهب من المذاهب ولا تفهم من شؤون حياتها
إلا أنها فرد مبهم من أفراد هذا المجتمع المائج والمضطرب ،
تمتد بامتداده وتنحسر بانحساره ، لا تعرف الآمال ولا تفكر
فى المستقبل ، ولا تحفل بالماضى ، ولا يتسع عقلها لأكثر
من الساعة التى تعيش فيها ، ولا تتألم إلا كما يتألم الأطفال ،
ولا تفرح إلا كما يفرح المجانين ، قد صفت نفسها من كل
شائبة من شوائب النفوس البشرية ، فلا تحقد ولا تغضب
ولا تكره ولا تحسد ولا تطمع ولا تتطلع ولا تشغل ذهنها
بترتيب الصور والأفكار واستنتاج النتائج من المقدمات ،
فأصبح ينظر إليها نظر الأب الرحيم إلى طفله اللاعب بين

يديه، وأصبحت تجلس تحت قدميه جلسة السكاب المخلص تحت قدمي سيده، لا تحدّثه حتى يحدثها، ولا ترفع نظرها إليه حتى يناديها، وكان يقول في نفسه كلما نظر إليها وإلى سذاجتها وطهارتها وبلاهة عقلها وغفلته: أهكذا قضى على الإنسان في هذه الحياة ألا تخلص نفسه من شوائب الرذيلة والشرّ حتى يُسلب عقله وإدراكه قبل ذلك، وألا يُمنح مقداراً من الصدق والشرف حتى يُحرم في مقابله مقداراً من الفطنة والذكاء، فليت شعري هل عجزت الطبيعة عن أن تجمع للمرء بين هاتين المزيّتين، مزية العقل الذي يعيش به، والخلق الذي يتحلى بحليته، أو أنّ الله في ذلك حكمة لا نعلمها ولا ندرك كنهها؟

وكأنما كان يشعر في نفسه باقتداره على أن يجمع لتلك الفتاة المسكينة بين هاتين الفضيلتين، وأن يصوغ من نفسها ذلك المثال الغريب الذي عجزت يد الطبيعة عن صياغته، فبدأ يهتم بشأنها اهتماماً عظيماً، ويتبسّط معها في الحديث تبسّط النظير مع نظيره، ذاهباً معها في كل وادٍ من أوديته معنيّاً كل العناية بتثقيفها وتعليمها وإنارة ما أظلم من بصيرتها، ولكن بأسلوب غير الأسلوب الذي كان يعلمه به معلمه في المدرسة، فأرشدّها إلى وجود الله لا من

طريق البراهين الجدلية والقضايا الكلامية ، بل من طريق الآثار والمصنوعات الناطقة بجمالها ولطف تكوينها عن قدرة صانعها وإبداع خالقها ، وأرشدنا إلى الفضيلة من طريق الفضيلة نفسها لا من طريق الترغيب في الثواب والتخويف من العقاب ، ليكون أدبها أدب نفس لا أدب درس ولتتزوج الفضيلة بنفسها امتزاجاً لا تزوجه عواطف اليأس ولا عوامل الرجاء فكانت تعجب لحديثه ومراميه عجباً شديداً ، وتجد فيه من اللذة والغبطة ما لا تذكر أنها شعرت بمثله في حياتها في حديث أى متحدث يتحدث إليها ، وتعجب أكثر من كل شيء لتنزل مثل هذا الأمير الجليل والسيد الشريف إلى مجالستها ومشافتها والنزول على حكمها في ما يغضبها ويرضيها ، فقالت له مرة وهى تحاوره : إنك تحدثنى يا مولاي كأنك لا تعرف من أنا ، قال : إني أعرفك كما تعرفين نفسك ، وأعرف أنك أختى فى الإنسانية وهى الأم الروم التى لا يستطيع أحد من بنينا أن يمت إليها بأكثر مما يمت به إخوته ، وما للأخت ملجأ تلجأ إليه فى شدتها غير عطف أخيها وحنانه عليها ، قالت : ولكنك تعلم أنى فساد مذنب ساقطة ، قال كل الناس مذنبون آثمون ، وإنما تختلف صور الذنوب وأشكالها

وأساليب اقترافها ، قالت : لم أر في حياتي منذ نشأت حتى اليوم عفيفا قط ابتسم في وجهي ، قال : ذلك لأن الناس مراءون مخادعون يزعمون لأنفسهم من الفضائل والمزايا ما تنكره نفوسهم عليهم ، فهم يحتقرون المذنب ويزدرونه لا لأنهم أطهار أبرياء كما يزعمون ، بل ليوهموا الناس أنهم غير مذنبين ، ولو أنهم تكاشفوا وتصارحوا وصدق كل منهم صاحبه الحديث عن نفسه لتنازكوا وتهادنوا ولما أخذ أحد منهم أحدا بذنب ولا جريرة .

وكذلك أصبحت ميلنزا العزاء الوحيد لقسطنطين عن همومه وآلامه ، فقد وجد بين جنبها تلك النفس الطاهرة البريئة التي طالما نشدها قبل اليوم فأصلها ، وتطلبها فأعياء طلابها ، ووجد في صدرها ذلك القلب المحب المخلص الذي بكاه وندبه ندبا شديدا يوم ماتت أمه ويوم تولى عنه حنان أبيه ، وكان يتحدث معها في كل شيء من شؤون الحياة دقيقة وجليها ويفضي إليها بكل خبيثة من خبايا نفسه إلا ذلك الهم العظيم الذي كان يعالجه في أطواء نفسه وأعماقها ويكابد منه ما يقاتل مضجعه ويصل ليله بنهاره ، وهو استحالة حال أبيه وانتقاض قلبه عليه وانقياده ذلك الانقياد الأعشى إلى تلك الفتاة اليونانية الدخيلة التي

لا يعينها من شأنه سوى أن تتخذ من عاتقه سلباً تصعد
عليه إلى سماء المجد ثم لا تبالي بعد ذلك أن تدفعه بقدمها
بعد بلوغ غايتها فيسقط في الهوة التي قدر له أن يهوى فيها ،
إلا أن ميلنزا الذكية بفطرتها المتفانية في حبها وإخلاصها
لم يكن يفوتها أن ترى بعين فطنتها وذكائها في تلك الزاوية
المظلمة من زوايا قلبه ذلك الهم الخفي المكتن ، وكان
يساعدها على فهمه واستكناهه تلك الأحاديث التي كانت
تسمعها تدور من حين إلى حين بين القائد وزوجته عند
ما كانا يمران بها أو يقفان على مقربة منها وهي جالسة تحت
بعض الجدران أو في ظلال بعض الأشجار لا يحفلان بها ولا
يلفتيان لها بالا ، فقد سمعته مرة يقول لها : إنني أحبك يا باريلى
حب المرء نفسه التي بين جنبيه ، ولقد عشت حياتي كلها قانعا
من العيش بتلك اللذة الوحشية الدموية ، لذة القتل والأسر
وسفك الدماء وتقطيع الأوصال ، حتى رأيتك تتطلعين إلى
تاج الملك وتشتهين أن تضعيه فوق رأسك فأحبته من أجلك
وأصبحت لا أقترح على الدهر أمرا سوى أن أرى تلك الجبهة
اللامعة المضيئة يتلألأ فوقها ذلك التاج المرصع البديع ، فلا
تياسى منه ولا تقنطى . واعلمى أننى سأآتيك به وإن كان
كوكبا نائيا في آفاق السماء ، أو ذرة راسبة في أعماق البحار .

وسمعتها مرة تقول له : ما أجل وجهك يا برانسكومير ، وما
أبدع ضيائه ولا لاهه ؛ وما أنصع هذه الشعور البيضاء التي
تدور به دورة الهالة بالقمر ؟ وما أجل تاج الملك يوم يوضع
على رأسك فتتحد الأضواء الثلاثة جميعها ويموج بعضها
في بعض فتتراءى في أجل شكل وأبدع منظر ، إنك ستكون
ملكاً ياهولاً وستكون أعظم ملوك العالم شأنًا وأرفعهم
مقاماً وستجتمع فوق عرشك الرفيع الأجداد الثلاثة : مجد
النسب ؛ ومجد الحروب ومجد الملك . وقد ألقى السكاهن في
نفسى كلمته التي تنبأ بها وما هو بالكاذب ولا المجنون ، فكان
على ثقة من صدقه وحكمته ، واعلم أنه ليس بينك وبين التاج إلا
خطوة واحدة فاخطها بهمة وعزيمة تبلغ الغاية التي تريد .
وسمعتها مرة تقول له : إنني لا أخاف على أمننا أحداً من
الناس سوى ولدك قسطنطين . فقد علمت أمس من بعض
أصدقائه أنه ينكر عليك كل الإنكار هذا المسعى الذي
تسعه اليوم ، ألا سمعت أنه يثبط الناس عنك ويزحزحهم
من حولك ويلقي في قلوبهم اليأس من نجاحك ، ولقد
حدثني عنه بعض الناس أن ذاكرًا ذكر له مرة ولاية العهد
مهنئاً لإياه بها ، فغضب واحتد وتغيظ عليه تغيظاً شديداً
وقال له : إنني جندي ولدت في ساحة القتال وسأموت

فيها . وإن كلمة كهذه الكلمة المؤثرة يقولها أمير مطاع
في الجيش والشعب كولدك لا بد أن تترك أثراً سيئاً في نفوس
الناس جميعاً وتفت في عضد أنصارك وأعوانك ، وربما كانت
سيباً في القضاء على آمالك وأمانيك ، ولا أعلم لخطته هذه
سبباً سوى ذلك البغض الشديد الذي لا يزال يضره لى
في أعماق قلبه منذ دخلت بيتكم حتى اليوم وما أذنت إليه
ذنبا ولا أسلفت عنده جريرة ، فهو يؤثر أن يحرم نفسه وبيته
ذلك الشرف العظيم الخالد على أن يرانى جالسة على العرش
بجانبك أستظل بظل نعمتك وأشاركك في التمتع بمجدك
وسلطانك ، فقاطعها الأمير وقال لها : لا تصدقى يا بازيليد
شيئاً مما يقولون ، فقسطنطين أبرّ بنى وأعظم حبا وإخلاصا
من أن يعترض سبيل رغبة يعلم أنى أرغبها وأصبو إليها ،
ولا أعلم أنه ييغضك أو يضر لك فى نفسه شيئا من
الشرّ الذى تذكرين ، بل هو يحترمك ويملك إجلاله إياى
ويحب لك من الخير ما يجب لى ولنفسه ولا يؤثر على
مرضاتنا شيئا .

وكذلك ظلت ميلترا تسمع أمثال هذه الأحاديث فتعلم
منها ما يدور بنفسى هذين الشخصين الطامعين وتعلم أن
هذا الذى يدور بنفسيهما إنما هو علة ذلك الهم الذى يعالجه

قسطنطين في أعماق قلبه ويكابد ، ولكن لم يخطر ببالها مرة أن تنقل إليه شيئاً مما سمعته إعظاماً له وإجلالاً وضناً بنفسها وبأدبها أن تفتاحه في أمر لم يشأ هو أن يفتاحها فيه .

التاج

جاء اليوم المعين لاجتماع الجمعية الوطنية للنظر في انتخاب الملك الجديد فنظرت في المسألة نظراً خالصاً مجرداً عن الميل والهوى فرأت أن العدو لا يزال على الأبواب وأنه لا يزال قوى الشكيمة صعب المراس وأن الوطن يحتاج إلى الأمير برانكومير قائداً أكثر مما يحتاج إليه ملكاً وأن الأسقف « أنين » أعظم رجال المملكة عقلاً وأسماء إدراكاً وأقوام سلطاناً على نفوس الجيش والشعب فقررت تقليده ملك البلقان وأعلنت قرارها في جميع أنحاء المملكة فقابله الشعب بالرضا والتسليم ولم يختلف عليه إلا العدد القليل من أشياع القائد وأنصاره .

ثم أقيمت حفلة التتويج بعد أيام فحضرها جميع وجوه المملكة وعيونها ورجال السياسة والجيش ماعدا القائد برانكومير ، فلم يأخذه الملك بهذه الهنة بل أعتبه وأعطاه من نفسه الرضا ، ولم يقنع في أمره بذلك حتى أعلن عزمه على السفر

إلى الحدود لزيارته في قلعته ، وما لبث أن سافر في جمع
من حاشيته وجنده ، وكانت رسله قد تقدّمت له لإنشاء القائد
بمقدمه فامتعض لذلك وتمرمر وكادت تحدّثه نفسه أن
يسافر إلى بعض الجهات حتى لا يستقبله عند قدومه لولا
أن أشارت عليه بازيليد بغير هذا الرأي فأذعن لها راغماً
ونزل بانتظاره أمام باب القلعة حتى حضر ، فحياه الملك
حين رآه تحية الإجلال والإعظام وعانقه عناقاً طويلاً وقال
له : أما الملك الجالس على عرش البلقان وصاحب الأمر
والنهي فيه فهو أنت يا برانسكومير ، أما أنا فأني خادمك
الأمين المخلص القائم بتنفيذ أوامرك وتجييش الجيوش لك
وإمدادك بما تحتاج إليه من العدة والمؤونة ، واعلم أن الأتمة
لم تضن عليك بالعرش والتاج ولا رأت أن أحداً أجدر بهما
منك ، ولكنها ضنت بك أنت ، وأنت حصنها المنيع ودرعها
الواقية وبطلها الذي لا يغني عنه في موقعة أحد — أن
يشغلك شاغل الملك عن شأنك الذي أنت فيه والذي نصبت
له نفسك طول حياتك ، فأثرت بقاءك في هذه القلعة تحميها
وتحمي المملكة بحمايتها : فإن لم تكن الملك الجالس على عرش
« فيدين » فأنت الملك المتبوّى عرش الأئمة والقلوب ، واعلم
أننى ما قدمت إليك مقدّمى هذا لأعتذر عندك من ذنب

اذنبته إليك أو لاتوقع لك من كارثة نزلت بك لأنى أعلم
أنك أجل وأرفع من أن تعتبر عبء الملك وهمه نعمة
تأسف على فقدها ، بل جئت لأباركك وأمسحك وأدعو
لك الله أن يمدك بروح من عنده حتى يتم لنا على يدك
النصر الذى نرجوه لأنفسنا فى أمن البلقان أبد الدهر أن تخفق
على ربوعه بعد اليوم راية غير راية المسيح أو يرن فى أجوائه
صوت غير صوت الله .

ثم تقدم نحوه ووضع يده على رأسه يباركه ويصلى له
وبرانسكو مير يتميز غيظا وحفا ولسكنه يتجلى لدويستمسك حتى
فرغ الأسقف من شأنه ، فلم يربدا من أن يستقبل حفاوته
بمثلها فمد إليه يده وهناه بالملك واعتذر إليه عن تقصيره
فى حضور حفلة التويج فقبل عذره وقضى بقية يومه عنده
هانئا مغتبطا لا يرى إلا أنه قد أرضاه ومحاثر ذلك العتب
من نفسه .

ثم عاد بموكبه راضيا مسرورا فشيعة القائد إلى ضاحية
المدينة ولبت واقفا مكانه ساعة ينظر إلى ذلك الماركب الفخم
العظيم ويسمع موسيقاه الشجية الجميلة حتى غاب عن بصره
فانقلب إلى قصره نائرا مهتاجا يصيح ويحار ويهذى هذيان
المحمومين حتى بلغ غرفته الخاصة فوقف بجانب نافذه عالية

مشرفة على الجماهير الغادية والرائحة في طرقها ومذاهبها وأنشأ
يحدث نفسه ويقول :

تبا لك أيها الشعب الخائن الغادر لقد جازيتني شر الجزاء
على عملي وكفرت بنعمتي التي أسديتها إليك ويدي التي
اتخذتها عندك أيام كنت أسهر لثنام وأشقى لتسعد وأقضى
ليالي الطوال سجيناً في قلعتي لا أبرحها ولا أنتقل منها لأدبر
لك أمر الحماية التي تحميك وتصون أرضك وديارك وأنت
لاه لاعب ، هاني مغتبط يمرح عامتك في منازلهم
ومسارحهم ليلهم ونهارهم ، وبقيم خاصتك حفلات الرقص
والغناء في قصورهم وأنديتهم ، فكان جزائي عندك أن ضننت
عليّ بالعرش الذي أنا عماده وملاكه وحامل قوائمه وعمده ،
وآثرت به كاهناً مأفوناً لا شأن له في حياته سوى أن يسمح
رءوس الأطفال ويهمهم حول أسرة الموتى ، فبئس ماجررت
على نفسك من الويل في فعلتك التي فعلت ، وبئست
الساعة التي رأيت فيها هذا الرأي الفائل الخطل ، لقد فلتت
بيدك سيفك الذي كان يحميك ويصونك ، وأطفأت جذوة
الحماسة في صدر قائدك الذي كان يذود عنك وعن عرضك
ويحمي أرضك وديارك ، فابتع لك بعد اليوم قائدا يتولى
حمایتك وصيانتك ، أو فاطلب إلى أسقفك التقى الصالح

الذى توجته يديك واخترتة بنفسك لنفسك أن يستنزل لك بدعواته النصر من آفاق السماء .

وإنه ليردّ في موقفه أمثال هذه الكلمات وينفث سموم الحقد والشر على العالم بأجمعه إذ دخلت عليه الأميرة باسمية متطلقة تختال في حللها وحلاها فأخذت بيده وقالت له: ارفق بنفسك يا برانكومير واعلم أن نبوءة الكاهن لا تكذب ولا تخيب ، وأبشرك أنك ستكون بعد شهر واحد ملكا على البلقان ، ولا تسألني كيف يكون ذلك ، فدهش لأمرها وحاول أن يسألها عن معنى كلماتها فلم تمكنه من ذلك لأنها تماهت عليه واعتنقه ووضعت على فمه قبلة شبيهة أطفاة بها جذوة خدته وغضبه ، ثم أفلتت من يده وعادت أدراجها .

المؤامرة

اضطجعت بازليد في سريرها وجلست خادماتها صوفيا تحت قدميها تروح لها بمروحتها وتحدثها حديث تلك الآمال الحسان التي لا تزال تترامى لها في يقظتها وتحلم بها في منامها وإنهما لسكذلك إذ قرع الباب قرعا خفيفا فعرفت صوفيا من القارع وفتحت له فإذا « بانكو » الجاسوس التركي متنسرا

في زى الموسيقار المسكين، فدخل وحيا الأميرة تحية الإجلال والإعظام ثم أخذ مقعده الذي كان يقتعده من الغرفة في كل ليلة وأنشأ يضرب على قيثارته قطعة رومانية جميلة من تلك القطع التي كان أعدها منذ عهد طويل ليخلب بها لب تلك المرأة ويستهوئها حتى أتمها، فطربت لها طربا شديدا، ثم دعت خادمتها فأرسلتها في بعض الشؤون، فلما خلاها المكان ألقي الموسيقى قيثارته جانبا وخلع عنه رداء التسكر ثم مشى إلى سريرها فجلس بجانبها وقال لها: ماذا تم في المسألة يا بازيليد. فقد طال مقامي في هذا البلد وأخشى أن يرتاب بي أحد، وليس في استطاعتي أن أبقى هنا أكثر من ثلاثة أيام ثم أنصرف لشأني.

فاعتدلت في جلستها وقالت له: لقد فاتحت الأمير ليلة أمس في المسألة وعرضت عليه مقترحك الذي اقترحت به فأصغى إلى حديثي في مبدأ الأمر، ثم لم يلبث أن اكفهر وجهه واكتأب وأبى أن يقبل مني كلمة واحدة في هذا الشأن، وظل يقاطعني ويعارضني معارضة شديدة فلم أشأ أن ألح عليه مخافة أن يرتاب بي وبمقصدي، وسأستأنف معه الحديث الليلة بعد رجوعه من المعسكر وأرجو أن ينتهي بإذعانه وتسليمه، ولا يفتك ياسيدي أن من أصعب الأمور

على رجل شريف عظيم مثل برانسكو مير أن يتحول في ساعة واحدة عن أخلاقه وطبيعته ، وأن ينقلب فجأة من رجل وطني مخلص يبذل دمه وحياته في سبيل الدفاع عن وطنه والذود عنه إلى خائن سافل يبيع ذلك الوطن العزيز عليه من أعدائه بعرض تافه من أعراض الحياة ، فلا بد من مهادنته ومؤاناته وأخذه بالروية والتؤدة .

قال : ليس في الأمر خيانة ولا دناءة ، ولا بيع وطن ولا أمة ، فانا لا نريد أن ندخل بلادكم مستعبدين أو مسترقين ، بل أصدقاء مخلصين ، وما خطر ببالنا قط حينما فكرنا في افتتاح بلادكم والنزول بها أن نصادركم في حريتكم الدينية والاجتماعية ، أو نسلب أموالكم وننتهك أعراضكم ، أو نغلق أبواب كنائسكم ومعابدكم ، أو نخرس أصوات نوابكم وأجراسكم ، إلا لنكون أعوانكم على ترقية شؤونكم الاجتماعية والاقتصادية والسير بكم في طريق المدنية الادبية والسياسية ، حتى تبلغوا الذروة العليا منهما ، ولنحميكم فوق ذلك من أعدائكم المجرمين الذين يطمعون في امتلاك بلادكم واغتيالها ، وندفع عنكم شرورهم ومطامعهم ، فنحن أصدقاؤكم المخلصون الاوفياء ، من حيث تظنون أننا أعداؤكم وخصومكم .

فابتسمت بازيليد ابتسامة الهزء والسخرية ونظرت إليه
 نظرة عتب وتأنيب وقالت له : إن برانسكومير يا صديق ليس
 موجودا معنا لنخدعه بأمثال هذه الأساليب الكاذبة ، أما أنا
 فأبني لأأخذع بها ولا أغتر ، لأنى أعلم كما تعلم أنت وكما يعلم
 السامسة الكاذبون جميعا أن الفاتحين من عهد آدم إلى اليوم
 وإلى أن تبدل الأرض غير الأرض والسموات لا يفتحون
 البلاد للبلاد بل لأنفسهم ، ولا يملكونها لرفع شأنها وإصلاح
 حالها والاختذ يسدها فى طريق الرقى والكمال كما تقول ، بل
 لامتصاص دمها وأكل لحمها وعرق عظمها وقتل جميع واد
 الحياة فيها ، والامة إن لم تتول إصلاح شأنها بنفسها لاتصلحها
 أمة أخرى مهما حسنت نيتها ونيل مقصدها ، والصالح إن
 لم يذنب فى تربة الامة نفسها ويزهر فى جوها ويألف مع
 مزاج أفرادها وطبيعتهم لا ينفعها ولا يجدى عليها ، ويكون
 مثله مثل الزهرة التى تنهل من مغرسها إلى مغرس آخر ،
 فهى تزهر فيه أياما قلائل ثم لاتلبث أن تذبل وتذوى .
 فإن وجد بين أولئك الطامعين من يذهب فى سياسته
 الاستعمارية مذهب الإصلاح والتشديد ، فكما يسمن صاحب
 الشاة شاته لينذبجها ويأكلها ، وكما يتعهد صاحب المزرعة
 مزرعته بالرى والتسميد ليستكثر غاتها وثمراتها .

أما الحرية الدينية التي تريدون أن تمنوا بها علينا فما أهونها عليكم مادامت لاتعطل لكم غرضا ، ولا تقف لكم في سبيل مطمع ، وقديما كان الفاتحون يخدعون الشعوب الجاهلة بإرضائهم في شؤون دينها ، ليسلبوا شؤون دنياها ، ويوجهون نظرها إلى الشؤون الروحية الخالية . ليقطعوا عليها طريق النظر في الشؤون المادية الحيوية ، فكان مثلهم في ذلك مثل اللص الذي يدس لمن يريد سرقة مادة مخدرة في طعامه لاتكلفه إلا ثمننا يسيرا يستولى على الجرم الكثير من دنائره ودراهمه ، على أن القوة الدينية في الأمة أثر من آثار القوة السياسية | فإذا ضعف أمر الأمة في سياستها ، ضعف أمرها مع الأيام في دينها ولا بقاء لدين من الأديان يعيش تحت سلطان دين آخر ويستظل برايته إلا كما يبقى الثلج تحت أشعة الشمس وحرارتها ، ومن ظن غير ذلك فعلى عقله العفاء .

أما حمايتكم إيانا من أعدائنا فليس لنا على وجه الأرض عدو سواكم ، فاحمونا من أنفسكم قبل أن تحمونا من غيركم ، وهب أن المجريين أعداؤنا كما تقولون ، فهل يطعمون في شيء أكثر مما تطعمون فيه أتم ؟ وهل يحاولون منا غير هذا الفتح الذي تحاولونه اليوم ؟ وهل من الرأي أن يهب

الانسان متاعه رجلا مخافة أن يغلبه عليه رجل آخر ؟
أو أن يذبح نفسه بيده فرارا من ذابح يريد أن يذبحه ؟
إنكم ما جئتم هنا لتحملونا من أعدائنا بل لتحتموا بنا
من أعدائكم ، لأنكم إنما أردتم بامتلاك هذه البلاد واستعمارها
أن تتخذوا من حصونها وقلاعها وجبالها وأسوارها ودماء
أبنائها وأرواحهم وقاية لكم تتقون بها زحف المجرمين عليكم
وعدوانهم على أرضكم .

هذه هي الحقيقة التي لا ريب فيها ، فإن كنت تريد بما
قلته أن تعلني ما ألفته لذلك الرجل الذي اتفقنا على خداعه
وختله فإنني أحفظ كثيرا من أمثال هذه الرقى والتعاويد ،
فلا حاجة بي إلى سماعها منك ، فلنعمل في المسألة معا
متكاشفين متصارحين ، ولتعلم أن الذي أسعى لإعطائك إياه
وتسليمك زمامه إنما هو الوطن بأجمعه ، أرضه وسماؤه ، ويره
وبحره ، وخيراته وثمراته ، وحرية أهله وسعادتهم ، وأن الثمن
الذي أتقاضاه في سبيل ذلك ثمن بخس ضئيل لا يزيد عن
كرسي من الخشب ممّوه بالذهب يسميه الجهلاء عرشا وهو
في البلد المغلوب على أمره المسلوب حرّيته واستقلاله سجين
ضيق لولا خدع الحياة وأكاذيبها لما استطاع الجالس عليه
أن يهدأ فيه ساعة واحدة ، فأنا أبيعك هذا الوطن الثمين

وآخذ منك ذلك الكرسي الحقيق ، وأنا عالمة قيمة ما أعطى
وقيمة ما آخذ ، فلا تحسب أنك تخدعنى أو تدهننى فى هذه
الصفقة ، وأقسم لك بشرفى وشرف « بيزنطية » لو كان هذا
الوطن وطنى وكانت تربته مدفن آبائى وأجدادى لما بعته
ذرة واحدة من ترابه بجميع عروش الأرض وتيجانها .

فأصفر الجاسوس وأربد وجهه وقال : إننا ما اجتمعنا
هنا لتفسير معنى الفتوح والاستعمار ، بل لأعرض على زوجك
هذا العهد السلطانى بتقليده ملك البلقان وإلباسه تاجه إن
هو تمكن من إخلاء التخوم من حراسها وسهل لجيشنا سبيل
اجتيازها ، فإن قبل فذاك ، أو لا عدت بعد ثلاثة أيام
إلى مركز الجيش ورفعت الأمر إلى سلطانى وقائدى ،
وعادت الحرب إلى شأنها الأول أو أشد ولا يعلم إلا الله
مى تنتهى وماذا تكون عاقبتها .

فتناولت منه العهد وقالت له سنلتقى بعد ليلتين
أو ثلاث ، وسأخبرك بما تم عليه الاتفاق .

فقام إلى مكانه الأول وأخذ يضرب على قيثارته بعض
الأناشيد الدينية ، وماهى إلا لحظة حتى عادت الوصيفة وكان
الليل قد انتصف فاستأذن للانصراف وانصرف .

الأمـل

الحب شقاء كله ، وأشقى المحبين جميعا أولئك الذين يحبون
بلا أمل ولا رجاء .

إنهم يذرفون دموعهم وهم عالمون أنهم يسكبونها في أرض
قاحلة جدباء لا تنبت لهم راحة ولا سعادة ، ويسهرون لياليهم
وهم يعتقدون أن ظلماتها لا تنحسر عن فجر منير أو صبح
سعيد . ويطارقون برءوسهم في خلواتهم لا يفكرون متى تنتهى
أيام شقاوتهم أو تبتدئ أيام سعادتهم ، فحياتهم كلها شقاء
لا فرق بين أمسها وغدها وحاضرها ومستقبلها ، بل ليفكروا
متى يرحلون عن هذه الدار ليستريحوا من آلامها وهمومها ،
فإن كان لابد لنا من أن نذرف قطرة من دموعنا على شق
في هذه الأرض فلنذرفها على والد ثكل ولده في ريعان
شبابه أحب ما كان إليه ، وألصق ما كان بقلبه ، من حيث
لا أمل له في رجعته ، ولا رجاء في لقائه ، أو عاشق عـلم
في ساعة ما كان يتوقعها أن حبيبته قد تزوجت من غيره ،
وأنها ستسافر اليوم أو غدا إلى وطن ناء لارجعة لها منه
أبد الدهر ، فوقف أمامها يودعها وداعا لا يقول لها فيه :
إلى الغد أو إلى الملتقى ، ولا يأخذ عليها فيه عهدا أو ميثاقا ،

بل يصمت صمتاً تذوب فيه كبده القريحة ذوباً ، حتى إذا غابت عن بصره وانقطع آخر آثارها رجع أدراجها وهو يعلم أن لا نصيب له في العيش بعد اليوم ، وأن هذا آخر عهده بالحياة ، أو فتاة بأئسة مسكينة كتب لها شقاؤها أن يعلق قلبها بعظيم من عظماء الحياة المدلين بأنفسهم ومكانتهم ، فلا تستطيع الصعود إليه في سمائه ، وليس من شأن مثله أن يهبط إليها في أرضها ، فهي تبكيه ولا يشعر بيكائها ، وتهتف باسمه ليلاً ونهاراً ولا يسمع نداءها ، ولا يزال هذا شأنها حتى يوافيها أجلها فيريحها .

كذلك كان شأن ميلترا فإنها أحبت سيدها حب العابد إلهه المعبود ، وافتتنت به افتتاناً كانت تحسبه في مبدأ أمرها عاطفة ولاء وإخلاصاً فإذا هو لوعة الحب وحرقة الغرام ، ولكن أنى لها وهي الفتاة الثورية الساقطة المسكينة أن يمتد بها مطعمها إلى ذلك السكوكب النائي في سمائه ، أو أن تمت إليه بسبب من تلك الأسباب التي يمت بها الناس بعضهم إلى بعض ، فكانت وهي أقرب الناس إليه أبعد الناس عنه وأناهم من مكانه ، لا تستطيع أن تتجاوز في موقفها معه منزلة الخادم من المخدوم ، والسيد من المسود ، والصنيعة من صاحب النعمة .

وكان يقلقها أشد القلق ويكاد يذيبها حياء وخجلاء خوفها أن يطلع منها على سريرة نفسها ، أو أن تعثر يوما من الأيام بذلك اللوعة المتأججة في صدرها فيتهمها في عقلها ويسخر بينه وبين نفسه بتصوراتها وآمالها ، فكانت تفرّ من نظراته كلما وقعت عليها حتى لا يرى في عينيها أثر الدمع ولا حمرة السهر ، وتهرب من الخلوة به جهدها حتى لا يرتاب في اصفرار وجهها واضطراب أوصالها وذبول عقلها ولجلجة لسانها ؛ أى أنها كانت محرومة كل شيء حتى تلك اللذة الضئيلة التي يتمتع بها أقل المحبين حظا ، وأخيبيهم في الحب سهما ، وهى الإفضاء بمسكنون صدرها إلى ذلك الذى تحبه وتعبد ، وكان كل ما يعرف قسطنطين من شأنها أنها فتاة مخلصة وفية تحبه حب العبد الشكور لسيده المنعم ، وكان يجد فى بلاهتها وسذاجتها وطهارة قلبها ونقااته وصدق لسانها وإخلاص قلبها ملهاة يتلهى بها عن همومه وأحزانه ، ومتكأ يتكى عليه فى ساعات إعيائه ونصبه ، لا يزيد على ذلك شيئا ، فكانت إذا جنّ الليل وأخذت الجنوب مضاجعها جلست فى فراشها تساهر الكوكب وتطالعها ، وتزفر زفرات حرّى موجعة وهى لا تعلم ماذا تشكو ولم تسكى ، لأنها لا تعرف لها غرضا ولا غاية ، ولو استطاعت أن تفهم

من شئون نفسها ما يفهم الناس من شئون نفوسهم لعرفت
أنها إنما تبكى على أن ليس لها في الحياة كما للناس أمل
ولا رجاء.

هذا هو الحب الطاهر البريء الذي لا تشوبه الأغراض
والغايات، ولا تحيط به الريب والشكوك، والذي طالما
نشده الناس في كل مكان فأضلوه، وذابت قلوبهم حسرة
عليه فلم يجدوه، وأي سعادة في الدنيا أعظم من سعادة
نفس تجدد بين يديها نفسا طاهرة مخصصة تحبها وتعبد لها،
وتمتزج بها امتزاج الماء بالخر، والأريج بالزهر؟ ولقد ظفر
قسطنطين من تلك الفتاة بهذه النفس المخلصة المتعبدة التي
تحزن لحزنه، وتفرح لفرحه، وتغضب لغضبه، وترضى لرضاه،
ولا تعرف لها وجودا منفصلا عن وجوده، ولا حياة
مستقلة عن حياته، فكانت منه بمنزلة المرأة من الوجهه،
تقطب إذا قطب، وتبتسم إذا ابتسم، وتطير فرحا وسرورا
باتتصاراته، وتذوب كدا وحزنا لآلامه وأحزانه، وتحب أباه
حبه إياه وتفر من زوج أبيه نفوره منها، وهو وإن لم يكن
يفاتها في شأن من شؤونه الخاصة، ولا يفضي إليها بسر من
أسرار بيته وعلاق بعض أفراده ببعض، إلا أنها كانت تشعر
أن تلك المرأة اليونانية الدخيلة خطر عظيم على الوالد والولد،

بل على الأمانة بأسرها ، وكان شعورها هذا يقودها إلى مراقبتها وملاحظتها في كل مكان ، وترصد حركاتها وسكناتها عليها تهجم منها على ذلك السرّ الهائل الذي تتوهمه توها ولا تعرفه ، فتكشفه وتمزق عنه الستار ، حتى واثاها القدر يوما من الأيام فعثرت به

السر

رجع قسطنطين من بعض غزواته فدخل على ميلتزا فرآها مطرقة واجمة فلم يلق لها بالا وخلع رداءه ثم جلس على كرسيه جلسة الراحة والسكون ، وإنه لسكذلك إذ طرق مسمعه صوت تلك القيثارة البديعة التي كان يسمعها من حين إلى حين تصدح في قصر أبيه فطرب لها طربا شديدا ، وافتترّ ثغره بعد عبوسه ، ثم نظر إلى ميلتزا وهي جالسة تحت قدميه فرآها مصفرة مغبرة الوجه ذاهلة كأن نسكة من النكبات العظام قد نزلت بها ، فعجب لأمرها وقال لها : ألا تطربين معي يا ميلتزا لهذه النغمات الشجية البديعة ؟ فرفعت رأسها إليه وكانت دمة لامعة تترقق في عينيها وقالت له : لا يا مولاي ، فدهش لقولها وقال : ولم ؟ قالت : لأنني لا أحبها ، قال : ولم لا تحبينها ؟ قالت : لأنني لا أحب صاحبها ، قال : وهل تعرفينه ؟ أليس هو ذلك الرجل البائس

المسكين الذى يختلف إلى الاميرة من حين إلى حين
ليسمعها أناشيد قومها وأغانيهم فتعود عليه ببعض نوالها ؟
قالت : إنه ليس بسائل ياسيدى ولا مسكين ، بل هو الضابط
العظيم إبراهيم بك أحد قواد الجيش التركى ، فانتفض قسطنطين
مذعورا واستوى فى مكانه جالسا وقال : ماذا تقولين ؟ قالت :
إنى كنت مخدوعة به قبل اليوم حتى رأيت ليلة أمس واقفا
تحت شجرة وارفة من أشجار الحديقة يصلى صلاة المسلمين
مطرقا خاشعا مستقبلا قبلتهم فارتبت فى أمره ثم دنوت منه
وأنعمت النظر فى وجهه من خلال بعض الأغصان
من حيث لا يشعر بمكانى فعرفته وذكرت أنه ذلك البطل
العظيم الذى كنت أراه فى معسكر الجيش التركى لا يزال
مرافقا للقائد الكبير يسير فى ركابه حيث سار ويتنقل معه
فى غدواته وروحاته ، وإن غابت عنى معرفته فلن تغيب عنى
معرفة تلك الشجرة الهلالية الواضحة فى جبينه وذلك الخال
الأسود المرتسم تحت عينه اليسرى ، بل أعرفه من تلك
النغمات الشجية التى يغنيها الآن ...

وهنا توقفت عن الكلام واضطربت وكأن كلمة حائرة
تختلج بين شفثيها فعجب قسطنطين لأمرها وسألها ما بالها ؟
فأطرقت هنيهة ثم رفعت رأسها فإذا دمعة تتحدر على خدها

واستمرت بها حديثها تقول : نعم إني أعرفه من تلك
النغمات التي كان يدعوني إلى الرقص عليها في خيمته في المعسكر
وهو جالس بين صحبه وخلانه من قواد الجيش ورؤسائه
يغنيهم ويطربهم فأرقص أمامهم رقص الطائر المذبوح وفؤادي
يتمزق لوعة وأسى لا أهن ولا أفر ولا أستعفى ولا أعتذر
مخافة أن يرى سيدي الجندى ذلك مني فيعاقبني ، فقد كان
يحاسبني على الضعف والعجز والحياء الخجل والتلوم
والاحتشام محاسبة القاضى المجرمين على الذنوب والآثام ،
فاعدتني ياسيدي إن بكيت لحظة بين يديك ، فإني وإن كنت
ولدت في مهد الشقاء ونشأت في حجر البؤوس والآلام فقد
كانت تلك الأيام التي قضيتها في ذلك المعسكر أو في بؤرة
السقوط والعار أشقى أيامي وأعظمها شدة وبؤسا ، لا أذكرها
إلا بكيت لذكرها ، وأسبلت رداي على وجهي حياء منها وخجلا .
على أنني أحمد الله إليك فقد بسط لي يد رحمتك
وإحسانك واستنقذتني من مخالف ذلك الشقاء أيأس
ما كنت من الخلاص منه ، احسن الله إليك وهون عليك
همومك وآلامك .

وكانت تتكلم وقسطنطين لاه عنها بقصة ذلك الجاسوس
لايكاد يشعر بشيء مما حوله ثم التفت إليها وقال لها : إذن

هو جاسوس متتكر ، قالت : ذلك ما أعتقده يامولاي
ولا أرتاب فيه ، فظل يدور في الغرفة دورة الهائم المختبل
لا يهدأ ولا يتريث وظل على ذلك ساعة ثم انقض بغتة
على ردائه فاخطفه وخرج من الغرفة مسرعاً فأدركته ميلترا
وتعلقت بأطراف ثوبه وقالت له : أين تريد يامولاي ؟ قال :
أريد أن أقبض على ذلك الجاسوس المجرم وأرفع أمره
إلى الأمير ليرى رأيه فيه ، قالت : إن القيثارة قد انقطع
صوتها ولا بد أن يكون قد ذهب لسبيله فدعه وشأنه
قال : لا بد لي من أن أكشف أمره على كل حال حتى
لا يعود إلى هذا المكان مرة أخرى ، قالت : أضرع إليك
ياسيدي أن تملك نفسك وأن تهدأ لحظة واحدة حتى أتم لك
بقية حديثي : فحمد في مكانه وقال لها ماذا عندك بعد ذلك ؟
قالت : إن كنت تريد أن ترفع أمر الرجل إلى أيك ليعرف
حقيقته فاعلم أنه يعرفه حق المعرفة بل هو أعلم به مني ومنك ،
فثار ثأره وصرخ في وجهها قائلاً : ماذا تقولين أيها الفتاة ؟
وجرد سيفه من غمده وأهوى به عليها ليقتلها ، فاستخذت له
ومدّت إليه عنقها وقالت : اضرب يامولاي فدمي حلال لك
وإن شئت فاستمع مني كلمة واحدة قبل أن تفعل ، فإن
شرفك وشرف بيتك رهن بما أقول ، فحمد السيف في يده

وظل شاخصا إليها ينتظر كلمتها فقالت : نعم قد تمّ الاتفاق
بين أليك وزوجته وذلك الجاسوس التركي على أن يخلى أبوك
تخوم المملكة من حراسها هذه الليلة لتتمكن الجيوش التركية
من اجتيازها ، فإن فعل أصبح في الغد سيد البلقان ومليكها .
قال : ومن أين لك علم ذلك ؟ قالت : قد سمعت الحديث الذي
دار بينهم في هذا الشأن ورأيت ورقة منشورة بين أيديهم
يقرأونها ويتداولونها وما أحسبها إلا وثيقة العهد الذي تعاهدوا
عليه ، فإن كنت لاتزال في ريب من ذلك فدونك الغرفة
المجاورة لغرفة الأميرة فادخلها برفق وهدوء وضع أذنك
على خصاص الباب المغلق بينهما كما صنعت أنا منذ ساعة
تسمع ما يتحدثون به ولك حكمك بعد ذلك .

فسمع قسطنطين أن الأرض الفضاء تدور به ، وأن الشمس
قد لبست قناعها الاسود فما يرى شعاعا من أشعتها ، وأن
فرائصه ترتعد وتصطك فاستكاد تحمله ، فراجع إلى جدار
قائم وراءه فأسند ظهره إليه حتى هدأ قليلا ، ثم مشى يتحامل
على نفسه حتى دخل الغرفة التي وصفتها ميلانز ومشى
إلى الباب الموصل بين الغرفتين ووقف بجانبه يتسمع فلم يسمع
شيئا حتى ظن أن الغرفة خالية ، ثم سمع صوت أيه فانتبه
وتجمع للإصغاء فإذا هو يقول لزوجته بصوت خافت متهدج :

هل سافر الرجل؟ قالت: نعم ياسيدي! وما أحسب إلا أنه تجاوز أطراف التخوم الساعة، فإن جواده افره الجياد وأسرعها، فصمت ولم يقل شيئا فذنت منه وقالت له بنعمة حلوة ساحرة: ما هذا الاصفرار الذي يكسو وجهك ياميشيل؟ وما هذه الكآبة السوداء التي تمتدجى في عينيك؟ فهل أنت نادم على ما كان؟ قال: لا، ولكننى أخشى الفشل، قالت: لا أعرف للفشل بابا يمكنه أن يدخل عليك منه، فأنت قائد الجيش وصاحب الأمر والنهى فيه، فإن كان كل ما يغنيك من الأمر ألا تظهر يدك في هذا العمل فتم الساعة والبس ثياب أحد الحراس واذهب إلى مكان الحارس الأول القائم على حراسة الراية الأولى وارقبه حتى تأتى ساعة انصرافه واستبداله فأظهر له كأنك الحارس الذى يخلفه فى مكانه واهتف له بكلمة السر التى بثتها الليلة بين جنودك، وحراس المداولة كثيرون لا يكاد يعرف بعضهم بعضا، فإذا انصرف لشأنه أخذت مكانه من حيث لا يعلم من أمرك شيئا، حتى إذا رأيت الجيش التركى مقبلا فى منتصف الليل وعلمت أنه قد أشرف على التخوم وملك رأس الطريق إلى «فيدين» عدت أدراجك إلى القصر متذكرا كما ذهبت لم يشعرك أحد فى ذهابك أو إيابك، وكأننا قد فوجئنا بهذه النازلة مفاجأة لانملك معها للأمر دفعا ولا ردا.

فطارت نفس قسطنطين شعاعا عند سماع هذه الكلمات
وكاد يصرخ صرخة عظمى يرتج بها القصر وأرجاؤه لولا أنه
طمع في أن يسمع من أبيه كلمة شرف وإباء تهدم صرح
تلك الخيانة الذي تبنيه يد زوجته ، فأرهدف أذنيه ليسمع
جوابه ، فسمعه يقول بنغمة الفارح المغتبط بعد كلام كثير
لم يفهمه : نعم هذا هو الرأي السديد ، ولقد أمنت الآن
كل شيء فأتيت بلباس الحارس فقد عزمت ولا مرد
لعزى ، فتهافت على عنقه وقبلته قبلة طويلة رنّ صوتها
في أرجاء الغرفة ثم ذهبت لشأنها .

فما سمع قسطنطين هذه الكلمة حتى أظلمت عيناه ،
واكفهر وجهه ، وتداركت ضربات قلبه ، وحاول أن يصيح
نخانه صوته فسقط مغشيا عليه ، ولكن بين ذراعى ميلتزا
لأنها كانت واقفة وراءه ترصده من حيث لا يشعر بمكانها ،
حتى إذا هوى تلقته بين ذراعيها وقادته إلى غرفتها .

الجريمة

جثم الليل في مجشمة ونشر أجنحته السوداء على السكون
بأجمعه فهجع تحت ظلالها الأحياء جميعا من بشر وحيوان .
ولم يبق ساهرا وسط هذا السكون المخيم إلا عينا القائد

بر انكوميير في شعب تراجان يديرهما هاهنا وهاهنا ، فينظر بهما
تارة أمامه وأخرى وراءه ليرى هل يرصده أحد أو يتأثر
حركاته وأعماله ، ويقلبها أحيانا في صفحة السماء فيرى عيون
النجوم محدقة فيه ، فيخيل إليه أنها عيون الله ناظرة إليه
نظرات الوعيد والتهديد ، وكأن صائحا يصيح به من جوانب
الملا الأعلى : « اصنع ما تشاء أيها الرجل الخائن ، واكنم عملك
عن عيون الناس جميعا ، فأني ناظر إليك ومسجل عليك هذه
الخيانة العظمى التي تجنيها على وطنك وقومك » فيتضاءل
ويتصاغر ويمر بخاطره قول أمه له في عهد طفولته فيما كانت
تمليه عليه من آداب الحكماء وأفوالهم (إن كواكب السماء
ونجومها تشهد بين يدي الله على جميع جرائم البشر التي ليس
لها شهود) ، ثم لا يلبث ان تسرى عن نفسه ويذهب به
خياله إلى الملك وعرشه ، وتاجه وصولجانه ، عزه ومجده ،
ثم يلقي نظرة عامة على الجبال المحيطة به ، والسهول المنبسطة
من حوله ، والأنهار المائجة بأشعة النجوم ولائها ، فيقول :
غدا تصبح هذه الجزيرة كلها جزيرتي ، وأهلها خدمي وحشمي ،
يأتمرون بأمرى ، ويدعون لقوتي وسلطاني ، وغدا يتلأأ
التاج على جبين بازيليد فتصبح أسعد نساء العالم جمعا
وأصبح بسعادتها أسعد رجاله ، ثم يخيل إليه كأنه يرى بازيليد

ماثلة بين يديه تنظر إليه نظراتها الساحرة الفاتنة ، فيمدّ ذراعيه
لاستقبالها ويناجيها قائلاً :

إني لأزال على العهد الذي عاهدتك عليه منذ فارتك
حتى الساعة ، لم أندم ولم أتردد ، ولا مرّ لي بخاطر أن أحفل
بشيء في العالم سوى أن أنيلك البغية التي تبتغيها .

إن القبلة التي وضعتها على شفتي منذ ساعة قد أثلجت
صدرى وسكنت جميع مخاوفي ووساوسى ، فأنا أقدم على
الجريمة إقدام الهادئ المطمئن ، لأشعر بثقلها ، ولا أفكر
في نتائجها ، بل لأشعر أنها جريمة يخفق لها قلبي خفقة
الأسف والندم .

لقد أقسمت لك على الوفاء بالعهد ولا بد لي من أن أبرّ
بقسمي ولو كنت أقسمت لك على حرمان نفسي منك —
وأنت الحياة التي لا حياة لي بدونها — لاستحييتك أن أحنث
في قسمي أو أن أخيس بعهدي .

أقسمت لك أن أخون وطني ، وهأنذا أخونه كما أردت
راضياً مستسلماً لأندبه ولا أرتئ له ، فرضاك هو الوطن كله ،
بل هو الدنيا بأجمعها ، فليذهب الوطن كله ، وليفن العالم
بأسره ، فأنت لي كل شيء فيهما .

وكان يحدث نفسه بهذا الحديث وهو جالس على رابية مرتفعة في شعب « تراجان » تحت القوس الروماني بجانب هضبة عالية من الحطب أعدت للإحراق إنذارا للجيش بالعدو عند زحفه ، وكانت الهضبات المحيطة بتلك الرابية أو المبعثرة من حولها سوداء قائمة تترامى في ظلمة الليل ووحشته في صور وحوش مخيفة هائلة فاعرة أفواهاها ، أو مقعقة على أذنابها ، أو متوثبة للهجوم ، فلا يقع نظره عليها حتى يطير قلبه شعاعا ، فيسرع إلى الاغتماض فلا يفارقه خيالها إلا بعد حين .

وما كان الرجل جباناً ولا رعيديداً ، فهو بطيل البلقان وحاميه وسيد من أنجبت به ميادين قتاله وساحات نزاله ... ولكنها الجريمة تنزع قلب المجرم من بين جنبيه ، وتغشى على عينيه البصيرتين فيصبح بلا قلب وبلا نظر ، يرى مالا يراه الناس ويخشى مالا يخشونه ، فهو لا يخاف الوحوش والهوام والجن والشياطين والصخور والأحجار ، بل يخاف جرائمه وآثامه .

وإنه لذلك إذ خيل إليه أن إحداها تتحرك من مكانها وتحلحل لتحلحل الليث المتوثب ، فاستطير قلبه فرقا ورعبا ، وحاول أن يتهم نظره ويستريب به فلم يستطع ، لأنه مالمبث

أن رأى فى ذروة تلك الهضبة رأسا يتحرك وينظر إليه
 بعينين متقدتين فصرخ صرخة الكلب الجبان الذى ينبغ الشبح
 المقبل نحوه لا جراءة وإقداما ، بل جبنا ، وفرقا ، وقال : من
 هناك ؟ فأنحدر الشبح إليه من أعلى الهضبة وقال له بصوت
 خشن أجش : لا ترتع يا أبت فأنا ولدك قسطنطين ، فوثب من
 مكانه وثبة الملسوع وقال له بصوت متهدج مخنتق : أما الذى جاء
 بك إلى هنا ، ومن أنباك أنى فى هذا المكان ؟ قال له : وأنت
 ما الذى جاء بك إلى هنا يا أبت ؟ وماذا تريد أن تفعل ؟
 لئن أسألك عن مثل ما تسألنى عنه ، فأسقط فى يده وطار
 طائر عقله وأحس بالخطر المقبل إلا أنه تجلد واستمسك وقال
 بلهجة الأمر المسيطر : وما سؤالك عن مثل هذا أيها القتي
 الجرىء ؟ وما شأنك بى وبما أفعل ؟ وكيف فارقت حصنك
 فى هذه الساعة من الليل ؟ ومن أذنك بذلك ؟ قال : لم أستاذن
 فى ذلك أحدا غير واجبى ، لئن أعلم كل شئ يا أبت ،
 وأعلم أنك ماجئت إلى هذا المكان إلا لترتكب أفظع
 جريمة يرتكبها إنسان فى العالم ، فصاح برانسكومير وهو يتميز
 غيظا وحنقا : كذبت أيها الغلام الوقح ، واجترأت على مالم
 يجترئ عليه أحد من قبلك ، عد الآن إلى حصنك ، ولا تبق
 بعد صدور أمرى إليك لحظة واحدة ، فإن حاولت فى ذلك

فأنت أعلم بما يكون ، إنك لا تفهم شيئاً من أسرارى
وخريصات نفسى ، وليس لك أن تسألنى عنها لأنك جندى
والجندى لا يسأل قائده ، بل يأتمر بأمره ولو كان الموت الزؤام ،
عد إلى مخفرك وتول حراسته بنفسك ولا تأذن لجفئك
بالغمض لحظة واحدة ، وسأحدثك غدا فى هذا الشأن حديثاً
طويلاً تعلم منه كل شيء .

فتضع قسطنطين أمام هذه اللهجة الرزينة الهادئة
وجثا على ركبتيه بين يديه وقال له : عفوا يا أبت فقد
أخطأت فى سوء ظنى بك فأنت أشرف من أن تضع نفسك
حيث أرادوا أن يضعوك ، وما أحسب كلمتك التى قلتها
للأميرة منذ حين فى تلك الخلوة الرهيبة إلا كلمة مزح ودعابة
أردت بها مداراتها وملايتها ، أو الهزء والسخرية بها حتى
إذا فصلت عنك وخلا بك مكانك محوت بظهير يدك عن فمك
تلك القبلة الأثيمة التى ختمت بها ذلك العهد الأثيم ، ثم قلت
لها فى نفسك : لئن قد عاهدت الله أيها المرأة البلهاء قبل
أن أعاهدك على أن أكون أميناً لوطنى ووفياً له فلا أحفل
بعهد غير هذا العهد ولا يمين غير تلك اليمين ، ثم خفت
أن تكون قد استراحت بك أومرت بخاطرها خلجة شك
فى أمرك فأخذت الأمر حيطتها من طريق غير طريقك ،

لجئت بنفسك لتتولى حراسة التخوم وحمايتها ، حتى إذا شعرت
بسواد الجيش التركي مقبلا أشعلت النيران إنذارا لجيشك
بالخطر الداهم وخيبت آمال أعدائك في ما يكيدونك ولقومك .

أليس كذلك يا أبت ؟ نعم إنه كذلك بلا شك ولا ريب
فأشعل النار الآن ودعها تسطع في هذا الفضاء الواسع ،
وتبدد بلائها هذه الظلمات المتكاثفة ، فإنني أشعر بسواد
مقبل من بعيد يتقدم شيئا فشيئا وما أحسبه إلا فيالق
العدو وجيوشه ، انظر يا أبت واخترق بنظرك هذا الفضاء
الشاسع ألا ترى تحت خط الأفق أشباحا تتحرك وتتقدم ؟
إنه ليخيل إلى أنها أعلام الجيوش التركية تخفق في أجوائها
وربما لا تمضي ساعة أو بعض ساعة حتى تكون قد وصلت
إلى هنا .

أسرع بإشعال النار ، أوعد أنت إلى قصرِكَ وخذ لنفسك
راحتها فيه ودعني أتولى عنك إشعالها فالخطر موشك
أن يقع ما من ذلك بد .

مالى أراك جامدا يا أبت ؟ وما هذا الذهول الذي
يتولاك ؟ أشعل النار أو تنح عن طريق لإشعالها ، أشعلها
فالوقت أضيق من التأمل والتفكير .

فرفع برانكو مير رأسه ونظر إلى ولده نظرة جامدة وقال له :
إذن أنت تتهمنى يا قسطنطين وترتابنى ، ما أشقانى وأسوأ
حظى ، ولدى وفلذة كبدى ووارث اسمى ولقبى يتهمنى
ويتجسس علىّ ويقف وراء الأبواب ينظر من خصائصها لسمع
ما يدور بينى وبين زوجى فى خلوتى ! فى العار ويا للشقاء ،
أيها الولد العاق المسكين ! اذهب لشأنك فإنى أريد أن أبقى
هنا الليلة وحدى ، ولا تجازف بمخالفة أمر قائد تعود أن
يأمر فيطاع ، وليس من شأن مثله أن يصبر لحظة واحدة
على مخالفة أمره ، إتنى سابقى هنا وحدى ، وسأشعل النار
بنفسى عند ما أريد إشعالها ، فلا حاجة بى إلى مشورتك
ومعونتك ، عد أدراجك إلى حصنك ولا تضاف إلى جريمة
التجسس على أهلك جريمة معاندته ومخالفة أمره ، واعلم أنك
الآن جندى أمام قائده ، لا ولد بين يدى أبيه .

فأن قسطنطين وتأوه آهة طويلة وقال : وارحمته لى
ولك يا أبت ، إن الأمر صحيح لا ريب فيه والجريمة على
وشك الوقوع .

ثم صمت صمتا طويلا لا تطرف له فيه عين ، ولا تنبعث
له جارحة ، ثم انتفض فجأة وصاح بلهجة شديدة صارمة :
أبى ! إتنى سابقى هنا .

فدهش ميشيل لعناده وصلابته وقال له : ما أراى الآن
إلا أمام عدو لدود لا ولد باز مطيع ، قال : لا يا أبت ، بل أمام
ولد باز مطيع ، ولولا ذلك ماجشمت نفسى مشقة المجيء
إليك فى هذه الساعة من الليل ولا وقفت أمامك هذا
الموقف الخطر المميت ، إتنى لم أفعل ذلك من أجل نفسى
بل من أجلك ومن أجل شرفك ، إتنى أحبك كما أحب
وطنى ، وما على وجه الأرض شىء أحب إلى منكما ، وكما
أتمنى له أن يعيش حرًا مستقلا ، أتمنى لك أن تعيش شريفا
عظيما ، فإذا ضاع وطنى وكان ضياعه على يدك أنت فقدت
فى ساعة واحدة جميع ما أحب فى هذه الحياة فارحم ولدك
المسكين الذى لا يزال يضرر لك فى قلبه حتى الساعة ذلك
الحب القديم الذى تعرفه واستبق له تلك السعادة التى لم يبق
له فى الحياة سعادة غيرها ، تمنح قليلا عن طريق وائذن لى
أن أصل إلى هذه الراية لأشعل نارها فيراها حرّاس الروابى
جميعا فيشعلوا نيرانهم فينهض الجيش للدفاع عن الوطن ،
فقد أزفت الساعة ولم يبق سبيل للأناة والتفكير .

ثم اندفع إلى مكان الراية مسرعا فاعترضه أبوه ووقف
فى وجهه وقفة الصخرة العاتية فى وجه الريح العاصف وقال له
لا آذن لك بالتقدم خطوة واحدة ، ودون ما تريد الموت الآثام .

فطاش عقل قسطنطين وجن جنونه وقال له : احذر
يا أبت ! فإن في هذه السماء المشرقة علينا بنجومها وكواكبها إلهاً
ينتقم من الظالمين ، ويجازى الخائنين بخيانتهم شر الجزاء ، وما
أنت بناج من عقابه ، ولا مفلت من جزائه ، لقد حدثتني
نفسى في تلك الساعة الهائلة التى سمعتك فيها توامر على وطنك
وأمتك بأفطع ما تحدث به نفس صاحبها ، وكنت على وشك
أن أرفع أمرك إلى الملك أنت وزوجك وأكشف له دخيلة
أمركا ، فلم أفعل ، لانى ضننت بك على الموت الدنى الذى
يموته الخائنون المجرمون أمثالك ، وأشفقت على ذلك الشرف
العظيم الذى فى علوه مناط السماء الأعلى أن يصبح مهانا
مذالا تدوسه الأقدام ، وتطؤه النعال . وكرهت أن يمر
السابلة من رعاك الناس وغوغائهم على قبرك بعد موتك
فيصقوا عليه كأنما يصبقون على قبر الشيطان ، وربما نبشوا
عن جثتك تشفياً منك وانتقاماً ، فأخرجوها من قبرها ،
وأسلموها إلى جوارح الطير وكواسر الوحش تمزق أشلاءها
وتبعثر عظامها .

أشفقت عليك من كل هذا ، وأشفقت على نفسى
أن يرانى الناس فى طريق فيشيروا إلى بأصابعهم ، ويقولوا
هذا هو الولد السافل الدنى الذى وشى بأبيه وأورده مورد

النهلكة ، فبئس الولد ولبئس الوالد ، ولا يلد الخونة المجرمون
غير الأذنياء الساقطين ، فنهت نفسي وملكت عليها زمامها
وقلبي يذوب حزنا ولوعة ، وقلت : لعلني أستطيع أن أتدارك
الامر من طريق غير تلك الطريق ، وأن أتمكن في آن واحد
من إنقاذ أبي وإنقاذ وطني من حيث لا أخسر واحدا
منهما في سبيل الآخر ، فجئت وقلبي ممتلئ أملًا ورجاء .

أما الآن وقد يئست من كل شيء فإني أكاد أشعر
بالندم على ضياع تلك الفرصة التي ملكتها ساعة من الزمان
فسرحتها ولم أتفع بها ، وكأن صوتا خفيا يهتف بي من
أعماق قلبي : إنك قد أشفقت على نفسك مرة وعلى أيك
أخرى ولم يخطر ببالك لحظة واحدة أن تشفق على وطنك
وقومك .

فأسألك مرة أخرى ياسيدي وربما كانت هي المرة
الآخيرة أن تتنحى عن طريق فإني قد عزمت عزما
لامرء له أن أقتع هذه الراية لأضرم ناراها رضىت
أم أيت ، سقطت السماء على الأرض ، أم بقيت في مكانها .
فأطرق برانكو مير لحظة ذهبت به فيها الهموم والأفكار
كل مذهب . ثم رفع رأسه فإذا دمعته كبيرة تترقق
في عينيه ونظر إلى ولده نظرة عتب وتأنيب وقال له : نعم

يا بني ! إنك قد أخطأت خطأ عظيماً إذ أضعت الفرصة العظيمة التي لاحت لك ، وقد كان جديراً بك أن تفتقرصها ولا تسرحها ، وأن تلقى في عنق أبيك في تلك الساعة التي رابك فيها من أمره ما رابك ، غلاً ثقيلاً ، تقوده به إلى حضرة الملك متهما إياه بجريمة الخيانة الكبرى ليأمر بقتله فتمتع نظرك برؤيته مصلوباً على باب المدينة والجامهير من حوله يبصقون على وجهه ويصفعون قذاله ويرجمونه بالحجارة على مرأى من ضباطه وجنوده وأسرته وأصدقائه ، وربما اشترك هؤلاء جميعاً معهم في عملهم .

نعم إنها فرصة ثمينة جداً قد أضعتها بترددك وتحريك ، وقد كان جديراً بك أن تقدم إقدام العازم المصمم كما كان يفعل أبوك لو كان في مكانك ، فقد عودت نفسي أتى إذا عزمت على أمر لا أتردد فيه ولا أترث ، وقد عزمت الآن على ألا أشعل هذه النار فلا أشعلها ولا آذن لك بإشعالها ، بل لا آذن لك بالتحرك من مكانك خطوة واحدة . فوقف قسطنطين حائراً ملتماعاً يترجح بين اللهف على وطنه الضائع ، والإشفاق على أبيه المسكين ، لا يستطيع أن يخون وطنه الذي نبت في تربته ، وعاش بين أرضه وسمائه ، ولا أن يفتق أباه الذي أبرزه إلى الوجود ووهبه نعمة الحياة

التي ينعم بها ، فأسند رأسه إلى صخرة كانت بجانبه خائرا
متضعضا تتوارد في رأسه الخواطر والأفكار ، يصارع بعضها
بعضا ، ويشتد بعضها في أثر بعض ، حتى بلغ منه الإعياء
مبلغه فنظر إلى أيسه نظرة منكسرة حائرة تفيض حزنا
ويأسا وقال :

أيرضيك ياميشيل برانكوميير ، يابطل البلقان وحامها ،
وأشرف من أنجبت به أصلا ب رجالها وأرحام نساها ،
أن يملك العدو علينا هذه البلاد العزيزة السكريمة فيقتل
أبناءها ، ويستحل حرمانها ، وينكس صلبانها ، ويهدم
صوامعها ومعابدها ، ويخرس فيها كل صوت غير صوت
الأذان على ذرى المنائر ؟ قال : نعم . يرضيني ذلك لآتني أحسنت
إليها فكفرت بنعمتي وجازتني شر الجزاء على صنيعي ، قال :
إن لم تفعل ذلك من أجلها فافعله من أجل ربك ، قال : أي رب
تريد ؟ إنني لأفعل شيئا من أجله فهو بمالي مداج لا يجب
إلا قسوسه وكهانه ، ولا يرى رهوسا تصالح للتيجان غير
رهوسهم الصغيرة الصلعاء ، ولكنني سأنتزع بالرغم منه ذلك
التاج من ذلك الرأس الذي توجه به وأضعه على رأسي ،
قال : ولكنك تعلم يا أبت أن التاج الذي يتناوله متناوله
من يد عدوه ليس بتاج شريف ، قال ولكنه تاج على كل حال ،

قال : ألا تخاف أن يثقل يوماً على رأسك فيهبط إلى عنقك ويستحيل إلى طوق حديدى يخنقك ويقضى عليك ؟ قال : إنك تهيننى يا قسطنطين وتهدنى ، ولقد بلغت بوقاحتك الغاية التى لا غاية ورامها ، فتجعل قليلاً ولا تنس أنك إنما تخاطب أباك ، قال : عفواً يا أبت وغفراً فلقد بلغ بى اليأس مبلغه حتى أصبحت لا أفقه ما أقول .

ثم دنا منه وأمسك يده وأنشأ يخاطبه بصوت ضعيف متهافت ويقول :

عد إلى نفسك لحظة واحدة يا أبت ، وراجع فهرس تاريخك الشريف ، واذكر تلك الأيام المجيدة التى أبليت فيها فى الدفاع عن وطنك وقومك بلاء سجله لك التاريخ فى صفحاته البيضاء بأقلامه الذهبية ، وتلك الوقائع الحربية الهائلة التى كنت تستقبل فيها الموت استقبال العروس ابتسامات عروسه الحسناء ليلة زفافها ، وتضحك للهول فيها ضحك الزهر لقطرات الندى ، والنبت لأشعة الشمس ، ثم تعود منها منصوراً مظفراً يستقبلك نساء القرى وقتيانها فى كل طريق مررت به بدفوفهن وعيدانهن يغنينك ، ويرقصن بين يديك ، ويرتشفن قطرات الدماء من كؤوس جراحتك ،

وينثرن الأزهار تحت قدميك ، وينادينك باسم المخلص العظيم
وخليفة المسيح في الأرض .

اذكر تلك الأعلام الوطنية التي تخفق على أبواب المدينة
وأسوارها وترنحها طربا وسرورا عند رؤيتك ، وترامبها على
قدميك كلما مررت بها كأنك تحاول تقييلهما ولثمهما ؛ واخش
إن مررت بها بعد اليوم أن تشيح بوجهها عنك احتقارا
وازدراء ، وتضم أطرافها إلى نفسها ترفعا وإباء ، حتى لاتلمس
جسمك ، ولا تخفق فوق رأسك .

لاتبع أمتك ياأبت بعرض تافه من أعراض الحياة
فالتاج الذي يتناوله صاحبه من يد عدوه ليس بتاج الملك ؛
إنما هو قلنسوة الإعدام .

كيف يهنؤك ذلك الملكُ وأنت ترى أمتك المسكينة
راسفة في قيود الذل والاستعباد تبكي وتستصرخ ولا منجد لها
ولا معين ، وتئن في يد عدوها القاهر أنين المحتضر المشرف
ولا من يسمع أنينها ، أو يصغي إلى شكاتها .

كيف يهنؤك ذلك العيش وأنت ترى أبناء وطنك أسارى
أذلاء في قبضة أعدائهم يسوقونهم بين أيديهم سوق الجزار
ماشيته إلى الذبح ، فإن خفق قلبك خفقة الرحمة بهم

أو العطف عليهم لا يستطيع أن تمت يدك لمعوتهم وإنقاذهم ،
لأنك قد بعثتهم ونقضت يدك منهم فلا سبيل لك إليهم
بعد ذلك .

اذكر يا أبت تلك الأيام التي لقي فيها هذا الشعب المسكين
على يد هؤلاء القوم الظالمين ما لم يلق شعب في الأرض
على يد فاتح أو مغتصب ، أيام كنا غرباء في أوطاننا ، أذلاء
في ديارنا ، نمشي فيها مشية الخائف المذعور ، وننتفض
انتفاضة الهارب المتسكر لأنعم أيسقط الشقاء علينا من علياء
السماء ، أم ينبعث إلينا من أعماق الأرض ؟ وهل يخرج
الخارج منا من منزله ليعود إليه أو ليرد المورد الذي
لارجعة له منه أبد الدهر ؟

اذكر أيام كانوا يملكون علينا كل شأن من شؤون
حياتنا حتى زروعنا وضروعنا ، ومياه أنهارنا ، وأشعة شمسنا
فأصبحنا ولا شأن لنا في وطننا إلا كما يكون لعمال المزرعة
ونواظيرها من الشأن فيها . ويحصون علينا كل حركة من
حركاتنا ، وكل سكة من سكناتنا ، حتى نبضات قلوبنا وخواطر
أفكارنا ، وفلتات ألسنتنا ، وأحاديث آمالنا ، ومحاسبتنا على
النظرة واللفتة ، والآلة والزفرة ، والقومة والقعدة ، ثم
يقضون فينا بما شاءوا من أقضيتهم فلا ينحسر ظلام ليلة من

الليالى إلا عن مصلوب تهفو به الرياح السافيات ، أو طريق
مرتهن فى أعماق السجون .

اذكر أيام كانت كلمة الوطن جريمة يعاقب عليها قائلها
بحرمانه من ذلك الذى يهتف باسمه ، وكلمة الدين إنما عظيم
يذهب بصاحبه إلى أحد القبرين ، إما المنشور ، وإما المحفور .
اذكر الدموع التى كانت تذرفها الأمهات على أطفالهن
المذبوحين فوق حجورهن ، والصيحات التى كانت تصيحها
الزوجات والأخوات الواقفات بأبواب السجون على أزواجهن
ولأخوتهن ، والزفرات التى كان يصعدها اليتامى الثاكرون على
حافات القبور حينئذ إلى آبائهم وأمهاتهم الهالكين .

اذكر ذلك كله ولا تنسه ، لابل أنت تذكره وتعرفه
كما تعرف نفسك ، لأنك أنت الذى قصصته علينا ومثلته
لأعيننا وقلوبنا ، وأريقنا من ويلاته ومصائبه ما لم نره ،
ولطالما كنت تبكى عند ذكره بكاء الطفل الثاكل أمه
فبكى لبكائك ونشيج لنشيجك .

ألا تسمع هذه الأصوات الخيفة التى تحملها إلينا الرياح
من ذلك الجانب الغربى ؟ إنها أصوات الموتى من جنودك
وأبطالك يضحجون فى قبورهم صائحين : واويلتاه ، ها هي
السما توشك أن تنقض على الأرض ، وها هي أقدام العدو

تدنو من تخوم البلقان وبطاحه ، وتوشك أن تطأ بفعالها
قبورنا ، وترجعنا من مراقدنا ، وها هو قائدنا المحبوب برانكو مير
العظيم الذى سفكنا دماءنا وبذلنا أرواحنا فى سبيل ظفره
وانتصاره يساوم عدونا فى وطننا ويحاول أن يبيعه نساءنا
وأولادنا الذين تركناهم أمانة فى يده ، فى سبيل الله ما سفكنا ،
وفى ذمة القدر ما بذلنا .

ألا تسمع هذه الهمة الهابطة علينا من آفاق السماء ؟
إنها أصوات الملائكة الأبرار يصيحون ويصخبون وهم
وقوف بين يدي ربهم يقولون له : حتى متى يسع قلبك
وأنائك هذا الخائن الغادر الذى يبيع أمة من أمم المسيح
إلى أعدائها وأعداء دينها ويسلم إليهم أرواحها وأعراضها ،
فاقض اللهم فيه قضاءك العادل واضربه الضربة التى تجعله
عبرة للخائنين ، ومثلا فى الغادرين .

إلى آيتها الذكريات القديمة والانتصارات العظيمة والأيام
الغرى المحجلة المسكتوبة بمداد الذهب فى صفحات التاريخ ، مدى
إلى يد مساعدتك ، وأعينى على ذلك الرجل البائس
المسكين ، وتمثلى أمام عينيه لتذكيره بنفسه وتاريخك ، عله
يحمر خجلا عند رؤيتك ، ويقشع بدنه رهبة من خيال الجريمة
التي يريد ارتكابها .

إلى آيتها الفضائل الإنسانية والسمات العالية من شرف
وعزة ، وترفع وإباء ، وأمانة وإخلاص ، تعالين إلى جميعا
واجثين معي بين يديه ، واضرعن إليه أن ينصفكن ، ويعدل
في أمركن ، ولا يقضى للرديلة عليكن ، وقلن له : إنك إن
خذلتنا ، ونقضت يدك منا ، فلن نجد لنا من بعدك ناصراً
ولا معيناً .

يا أطفال البلقان وصغاره الناشئين من فتيمة وفتيات ،
أقبلوا إليه جميعاً : واجتمعوا من حوله ، وتعلقوا بأهداب
ثوبه ، واسكبوا ما تستطيعون أن تسكبوا من دموعكم
وشؤونسكم تحت قدميه ، وقولوا له : رحمة بنا أيها الأب
الرحيم والسيد الكريم وحنانا علينا ، لا تكلنا إلى أعدائنا وأعداء
وطننا ، ولا تجعل مستقبلنا ومستقبل بلادنا في أيديهم
يسوموتنا الخسف ويذيقوتنا ألوان العذاب ، فإن أبيت
إلا أن تفعل ، فجزد سيفك من غمده واقطع به أعناقنا
فذلك خير لنا من هذا العيش المؤلم المرير .

وكان يتكلم ودموعه تنهمر على خدييه دائبة ماتهداً ولا ترقأ
وأبوه يضطرب بين يديه اضطراب الدوحة المائلة في مهاب
الرياح الأربع وبزفر زفرات محرقة ملتهبة ، وقد قامت
في نفسه تلك المعركة الهائلة التي تقوم في كل نفس شريفة

بين الواجب والشهوة ، يتمثل له الأول في وجه قسطنطين
العبوس المكتئب ، فيرتعد ويضطرب ، وتترامى له الثانية
في وجه بازيليد الضاحك المشرق ، فيخور ويتضعض ،
لا يستطيع أن يعرض عن نداء وطنه ، لأنه نداء يصل
إلى أعماق قلبه ويبلغ صميمه ، ولا أن يفلت من سلطان
شهوته ، لأنه سلطان قاهر جبار لا يفلت منه قوى ولا ضعيف ،
فوضع إحدى يديه على عينيه ، ومدت الأخرى أمامه كأنما
يطارد بها أشباحا مخيفة هائلة تتقدم نحوه ، وظل يصيح
بأعلى صوته : اصمت يا قسطنطين ! اصمت يا ولدي ! لا أستطيع
أن أحتمل أكثر مما احتملت ، آه من القدر وأحكامه ،
والدهر وتصرفاته ، وويلي من الشقاء المكتوب ، والبلاء
الحتم ، من لي بيد قوبة تنقذني من هذا الشقاء المحيط بي ،
فقد أصبحت وما على وجه الأرض أحدا جدر بالرحمة
والشفقة مني ، العنوني جميعاً يا أولادي وأبناء وطني ،
وانتقموا مني بأفضع أنواع الانتقام ، فإتي خائن لثيم
لا أستحق رحمتكم ولا مغفرتكم ، ثم صمت صمتاً عميقاً
لا ينبس فيه ولا يتحرك وظل على ذلك هنيهة ثم نظر أمامه
نظرة الدهشة والذهول فغلب إليه أنه يرى شبحاً يتقدم نحوه
فمد يده إليه وأخذ يناجيه ويقول : بازيليد ! ، ألا تستطيعين

أن تحليني من ذلك القسم الذى أقسمته لك ، فقد ضعف
كاهلى عن احتماله واحتمال أثقاله ، لا أريد ملكا ولا تاجاً ،
ولا عرشاً ولا صولجاناً ، بل لا أريد أن أبقي على ظهر الأرض
يوماً واحداً ، الموت الموت ! من لى به فى هذه الساعة
فأنجو من همومى وآلامى .

قهل وجه قسطنطين غبطة وسرورا ووقع فى نفسه أن
الرجل قد تلقى واستخدى وبدأ يستفطع ذنبه ويستهلله ؛ فترامى
على عنقه واحتضنه إليه وظل يقول بنغمه الفارح المقتبط :
أحمدك اللهم قد أنقذت لى أبى ، خنا أبوه عليه وظلا
متعانقين ساعة لا يسمع فيها إلا تردد أنفاسهما ونشيج بكائهما ،
ثم افرقا بغتة واشربا بأعناقهما حينما سمعا فى لحظة واحدة
حسيس جيش العدو وهو مقبل من ناحية الشمال ، وكان
ما سمعاه فى هذه المرة حقيقة لاهما ، فارتجلا فى وقت
واحد حركتين مختلفتين ، إذ وثب قسطنطين إلى الراية وثبة
عظمى ليضرم نارها ، ووثب أبوه وثبة أعظم منها فاعترض
سبيله وصرخ فى وجهه : قف مكانك ، لا تتقدم خطوة
واحدة ، فأصاب قسطنطين مثل الجنون وقال له : تنح عن
طريقي أيها المجرم الأثيم فقد فرغ صبرى ، قال : إنك لا تستطيع
أن تمر إلا على جثتى ، فارتعد قسطنطين وبرقت عيناه وذهبت

به الأفسكار مذهبها وقال له : أى كلمة هائلة نطقت بها
أيها الرجل الشقي ، وأى قضاء قضيت به على نفسك ، تنح
عن طريقى فإن نفسى تحذثنى بأفطع ما تحدث به نفس
صاحبها فى هذا العالم ، قال إنك لا تستطيع أن تقتل أباك ،
قال : أستطيع أن أفعل كل شىء فى سبيل وطنى ، إتنى وقفت
سيفى طول حياتى على خدمتك وحمايتك والذود عنك أيام
كنت لوطنك وقومك ، أما الآن فإنى أغمد ذلك السيف
نفسه فى صدرك طيب النفس مثلوج الفؤاد لأنى أعتقد
أنى لا أغمده فى صدر أبى ، بل فى صدر خائن وطنى ،
قال : لا تنس أن لى يداً أقوى من يدك وسيفاً أمضى من
سيفك ، قال : لى لا أجهل ذلك ، ولكنك تقاتل فى سبيل
الدناءة والخيانة ، وأقاتل فى سبيل الواجب والشرف ، والله
مطلع علينا من علياء سمائه ، وهو الحكم العدل بيننا ،
فجرد برانكو مير سيفه وهجم على ولده هجمة قوية فجرد الآخر
سيفه وتلقى ضرباته بأشد وأنكى منها وما هى إلا جولة
أو جولتان حتى حكم القاضى العادل حكمه فسقط الظالم
ونجا المظلوم .

فنظر قسطنطين إلى جنة أبيه الساقطة تحت قدميه نظرة
جامدة صامتة لا يعلم ما وراءها ، ثم أغمد سيفه وصاح بأعلى

صوته : رحمتك اللهم يا بني لا أستطيع أن أفعل غير ما فعلت ، ثم هجم على الراية فأشعل ناراها فضاءت بها أرض البلقان وسماؤها .

وفي اليوم الثاني نشر الملك ميلوش على الأمة هذا البلاغ : « حاول العدو ليلة أمس تبييت جيوشنا وأخذها على غرة وكاد يظفر بذلك لولا أن انتهت الفرقة الأولى من الجيش ونهضت للدفاع بقيادة ضابطها العظيم قسطنطين برانكوميير فأبليت في المعركة بلاء عظيما ووقفت العدو في مكانه ساعة كاملة حتى نهضت بقية الفرق لمساعدتها ، فدارت معركة هائلة بين الجيشين انتهت بانتصارنا وانهمام العدو إلى مواقعه الأولى ، ولكن المصاب العظيم الذي عمّ الجيش وشمل الأمة بأبرها هو موت قائدنا العظيم « ميشيل برانكوميير » فقد وجد في أثناء المعركة قتيلا بضربة سيف في خصرته بين صخور ترابان تحت القوس الروماني ، وسيحتفل بتشييع جنازته غدا احتفالا عسكريا جليلا يليق بمقام شهيد الوطن وبطاله العظيم » .

أما الذي خلفه في قيادة الجيش فهو ولده الضابط الشجاع منقذ الأمة والوطن « قسطنطين برانكوميير » .

الضمير

مضى الليل إلا قليلا وقسطنطين ساهر في فراشه
لا يغمض له جفن ، ولا يطمئن له جنب ، لأن مصرع آيسه
في شعب تراجان لا يزال ماثلا أمام عينيه ما يفارقه لحظة
واحدة ، وكان كأنه يرى الجثة بين يديه تتلوى وتتمرمر وتنظر
إليه نظرات حادة ملتبهية ، وكأن جرحها الدامي بين أضلاعها
لا يزال يتدفق منه الدم ، فثار من مكانه هائجا مذعورا وحاول
أن يطرد هذا الخيال عن نظره فلم يستطع ، فمد يده إلى ذلك
الجرح الموهوم المائل أمامه يريد أن يعترض سبيل الدم
المتدفق منه فغلبه على أمره وازداد في تدفقه وانبثاقه حتى
ملا أرض الغرفة جميعها ، وصبغ بلونه الأحمر القاني جميع
ما فيها من فرش وأثاث وآنية وثياب ، فاشتد فزعه وارتباعه
ولم يستطع أن يحتمل أكثر مما احتمل فوقع مغشيا عليه .

وظل على ذلك ساعة حتى انفثأت حرارة دمه فاستفاق
من غشيته وجلس إلى نفسه يناجيها ويقول :

أتى على ثقة من نفسي ، لم أفعل إلا ما يجب على كل
رجل شريف أن يفعله ، فما هذا الخوف الذي يساورني !
وما هذه الصور المخيفة التي تتراعى لي في يقظتي وأحلامي !

كان يجب عليّ أن أضرب لأنه ما من ذلك بدّ ففعلت ،
 فلم أرتاب في عملي ! ولم ارتعد ارتعاد المجرمين الآثمين !
 إن الرجل لا يخاف إلا ذنبه ، وأنا لم أذنب إلى أحد ، لأن
 الرجل الذي قتلته كان يريد أن يقتل أمة بأسرها فأنقذتها
 بقتله ، بل أنقذت عشرين أمة من أمم المسيح في أوربا ،
 ألا يجوز للإنسان أن يقتل الأفعى دفعا لأذاها ، والوحش
 كسرا لسيرته ، واللص اتقاء لضرره ! إنني لم أفعل غير ذلك ،
 فإلى أرى وجه السماء أحمر قاتئاً ليله ونهاره ، وإلى أجد
 مذاق الدم في كل كأس أشربها من ماء أو خمر ، وإلى
 لا أستطيع النظر إلى يدي خوفاً ورعباً ! إنني لم أقتل أبى ،
 ولكنني أحبيته ؛ لأنه إن كان يحيا اليوم في قلوب الناس حياة
 العظمة والمجد وكان تمثاله إلهاماً معبوداً يطيف به الشعب
 ويقبل أركانه ويتبرك بلمسه واستلامه وكان اسمه طغراء
 الأسماء الشريفة المسجلة في التاريخ فإنما ذلك بفضل الضربة
 التي ضربته إياها . ولولا ذلك لعاش بقية أيام حياته عيش
 الأذنياء الساقطين ؛ أو مات موت الخونة المجرمين .

وهنا انتفض واصفرّ وارفض جيده عرقاً وقال بصوت
 ضعيف مختق : نعم ! إن ذلك كله صحيح لا ريب فيه
 ولكنني قتلت أبى !

ثم لم يلبث أن عادت إليه مخاوفه ووساوسه فرأى الجنة
والمصرع والطعنة النجلاء، والدم المتدفق، وسمع تلك الأصوات
التي تهتف به في كل مكان : « يا قاتل أبيه ، يا كبر المجرمين ،
يا عار البشرية وشنارها » فجن جنونه ، وثار ثأره ، وعادت له
سيرته الأولى .

ولم يزل هكذا ليله كله ، يهدأ حيناً ويثور أحياناً ، حتى
نشر الفجر رايته البيضاء ، في آفاق السماء فاستروح رائحة
الأنس وشعر بيرد الراحة فأوى إلى مضجعه .

كذلك كان شأن قسطنطين دائماً ، وكذلك كانت أكثر
لياليه منذ حدث ذلك الحادث العظيم .

الآزهار

دخلت ميلتزا غرفة قسطنطين صباح ليلة من تلك الليالي
الطويلة الليلاء ويدها باقة من الزهر تريد أن تقدمها إليه
فرأته مضطجعا على كرسيه مستغرقا في نومه وآثار الدمع
ظاهرة بين أهداب عينيه وفي صفحتي خده فرثت لحاله
وجالست تحت قدميه ترقب يقطته رقبى المجوسى طلعة
الشمس من مشرقها ، فحمل النسيم إلى رأسه نفحات تلك
الآزهار فاتعش وتحرك في مكانه وفتح عينيه فرآها فابتسم

وتهلل وقال : ميلتزا ا قالت : نعم ياسيدى ! نعمت صباحاً ونعمت
جميع أيامك بكورها وأصائلها ، ثم مدت يدها إليه بالباقة
وقالت له : قد اقتطفت لك صباح اليوم هذه الأزهار الجميلة
التي تحبها أكثر من سواها لتستروحها فتروح عن نفسك
برياها همومها وأحزانها ، فتناول الباقة منها واستنشقتها وتنفس
تنفساً طويلة ثم نظر إليها نظرة حلوة عذبة وقال لها :

أتعلمين يا ميلتزا أننى أستنشق فى هذه الأزهار التي
تهديها إلى أنفاسك الأريجحة العطرة ، وأن الذى ينعشني
ويحييني ويرفقه غنى همومي وآلامي فى هذه الباقة إنما هو
أريجك لأريج الأزهار ! فارتعدت ميلتزا لأول كلمة حب
سمعتها من فمه وظل قلبها يخفق خفقاناً شديداً وملك الدهش
عليها عقلها ولسانها فلم تستطع أن تنطق بحرف واحد ، وظلت
شاخصة اليه ببصرها ، فاستمر فى حديثه يقول : لقد كنت
أطلب الموت قبل دخولك وأتمناه تمنياً شديداً حتى رأيتك
ورأيت هذا الجمال المتلألئ فى عينيك وشممت أنفاسك
العطرة المنبعثة من أوراق أزهارك فأحببت الحياة من
أجلك ، وأصبحت أتمنى أن أعيش لأراك ، وأقضى بقية
أيام حياتي بجانبك ، فشكرا لك يا صديقتي ، فأنت النجمة
الوحيدة الباقية فى سماء حياتي بعد ما غربت جميع نجومها

وكواكبها والشعاع المضيء الذى ينبعث إلى أعماق سجنى
المظلم الحالك فيبدد ظلمته وينير جوانبها ويملا قلبي أملا
ورجاء ، والواحة المخصصة الخضراء التى ألجأ إليها كلما قطعت
مرحلة فى صحراء هذه الحياة المحرقة فأنام تحت نجيلها ، وأبرد
يبرد مياهاها ، قالت : ليتنى أستطيع أن أكون عند ظنك بى
ياسيدى بل ليتنى أستطيع أن أقاسمك هذه الهموم
والأحزان التى تعالجلها ، أو احتملها عنك جميعها حتى لا أراك
بين يدي* إلا باسماء متطلقاً فى جميع آنائك وساعتك ، إتنى
أمتك الوضيعة المسكينة ياسيدى ، وليس لفتاة مثلى أن
تسألك عن سبب همومك وأحزانك ، ولكننى أستطيع أن
أضرع إليك أن تسريها عن نفسك وتهونها عليك فأنت رجل
فاضل شريف ، وقد قلت لى قبل اليوم : إن الرجل الفاضل
الشريف يعيش من شرفه وفضيلته فى سعادة لا يهنا
بمثلها الملوك فى أقصورهم . قال : ومن أين لك أتى رجل
فاضل شريف ؟ قالت لولم تكن كذلك لما أحبتك ،
فابتسم قليلا وقال : إذن أنت تحبيننى ياميلتزا ، قالت : نعم
ياسيدى أكثر من كل شىء فى العالم ، ولولا كرامة أمك
عليك وجلال ذكراها فى قلبك لقلت لك إنها ما كانت
تحبك فى حياتها أكثر مما أحبك اليوم ، فأطرق قسطنطين

لتلك الذكرى المؤلمة ، ومرت بحبيبه سحابة سوداء قائمة فرفع رأسه وقال لها : حسبك ياميلتزا لا تذكريني بامى فما أحسبها الآن إلا ناقة على قبرها ؛ تلغنى وتستعدى ربها على ، وتسأل الله صباحها ومساءها أن يعاقبنى وينتصف لها منى ، واخجلتاه من نفسى يوم ألقاها فى تلك الدار ، ويجمع الموقف العظيم بينى وبينها ، فارتاعت ميلتزا عند سماع هذه الكلمة وذهبت بها الظنون كل مذهب ، وظلت تنظر إليه نظرا غريبا حائرا ، وقد بدأت تفهم ذلك السر الهائل الذى أعياها أمره زمنا طويلا ، وتذكر السبب فى حزن قسطنطين هذا الحزن الشديد الذى يقيمه ويقعده ويساور نفسه ويقلقها منذ قتل أبوه حتى اليوم ، وكأنه قدم ألم بما دار فى نفسها وتردد فى خاطرها فظل ناظرا إليها بلهف وشوق ينتظر أول كلمة تنطق بها بعد هذا الصمت الطويل انتظار المنهم أول كلمة ينطق بها قاضيه بعد سماع دفاعه ؛ حتى رآها تبسم وتهلل وتقول له : هون عليك الأمر ياسيدى ، ولا ترتب فى نفسك ولا فى ضميرك ، فما أنت بمجرم ولا قاتل ، ولكنك رجل شريف ، ولولأنك كذلك لما أحبتك ، فمد يده إليها فتناول يدها وقال لها : أتعدىنى ياميلتزا أن تسكنى فى صدرك كل شئ ؟ قالت : نعم . أعدك وعدا لا أخيس به ، قال : وشئ آخر ياميلتزا ، قالت :

وما هو ياسيدي ؟ فأدناها منه وضمها ضمة خفيفة إلى نفسه
وقال لها : أتقسمين لي على الحب حتى الموت ؟ قالت : نعم
ياسيدي أقسم لك ، قال : بهم تقسمين ؟ قالت : بكل ما تسكن به
نفسك ، قال : ضعي يدك على هذا الخنجر واقسمي به ، قالت :
أفعل على شرط واحد ، قال : وما هو ؟ قالت : أن تُهدني إياه
بعد ذلك ، قال : وماذا تصنعين به ؟ قالت : أقتل به نفسي يوم
يحمل بك مكروه ، فناولها إياه وهو يقول في نفسه : ربما حل بي
عما قريب ذلك المكروه الذي تتوقعين ، فوضعت يدها على
الخنجر وأقسمت به أن تحافظ على حبه والإخلاص له حتى
الموت ، فتهلل قسطنطين فرحاً وسروراً ونزعه من خاصرته
وعلقه في منطقتها ، ثم ضمها إلى صدره ضمة شديدة وقبلها
في ثغرها قبله كانت عزاءها الوحيد عن كل ما مربها في حياتها .

حديث

جرح الجندي « اورش » في إحدى المعارك فلزم يده
وتولت ابنته « آنا » معالجته ، وكان يزوره بعض أصدقائه من
الجنود في الفينة بعد الفينة ، فزاره في أحد الأيام الجندي
« لازار » وكان لا يزال حارساً للقصر القائد برانكو مير والخادم
الأمين لأرملته بازيليد وثقتها المؤتمن على جميع أسرارها

ودخائلها ، فقال له « أورش » حين رآه : هل من جديد
اليوم يا لازار ؟ قال : نعم قد فشل جيشنا في الواقعة الأخيرة
كما فشل في الواقعة الماضية والوقائع التي تقدمتها ولا أعلم
متى تنتهى هذه الانكسارات ، فقد تمت عدتها حتى الأمس
عشرا ، ولا أعلم ما يأتى به الغد ، أما القتل والجرحى فهم
كثيرون لا يحصى لهم عدد ، وما بيتك بالبيت الوحيد ، الذى
تترقق فيه الدماء والدموع ، ففي كل بيت من بيوت المدينة
شاكون ومتألمون .

فقال أورش : لاريب أن قسطنطين غير أبيض ، ولقد
فقدنا بفقد ذلك الرجل العظيم قائداً كان خير القواد وأبرعهم
وأوسعهم علما وتجربة ، وأعلمهم بموارد الأمور ومصادرها ،
لم يفلت النصر من يده فى جميع معاركه أكثر من مرة
أو اثنتين ، حتى مات فى الواقعة الأخيرة وسيفه مصلت
فى يده ميتة البطل الشريف ، فمات بموته الظفر والانتصار ؛
وأدار الزمان وجهه عنا ، ولا يعلم إلا الله متى يقبل بعد إداره .
فقالت له ابنته « أنا » وكانت جالسة تحت قدميه تضمد
له جراحه : لقد قلت لى يا أبت قبل اليوم : إن قسطنطين
قائد عظيم لا يشق له غبار ، فما هذا الرأى الذى تراه فيه
الآن ؟ قال : نعم كان قائدا عظيما فى حياة أبيه وتحت لوائه ،

وأما اليوم وقد استقل بالرأى وحده وانقطع عنه ذلك الوحي
الذي كان يرشده ويهديه ، فقد انتقض عليه أمره ، وأصبح
خائراً مضطرباً لا يدري ماذا يفعل ولا كيف يصرف وقائعه
ومواقفه ، فقالت : إن جيشنا لم ينكسر قط في واقعة من تلك
الوقائع التي تذكرونها كما تتوهمون ، لأنه لم يتخل عن مركزه
ولم يسلم شعباً واحداً من تلك الشعاب التي يحرسها ، أما القتلى
والجرحى وكثرتهم فهم في جيوش أعدائنا أكثر منهم في جيوشنا
أضعافاً مضاعفة ، وحسبنا ذلك فوزاً وانتصاراً .

فقال لازار : لقد كانت خطة القائد ميشيل خطة دفاع
محض لا يحول عنها ولا يتزعزع ، والجبال بين يديه تحميهِ
وتحفظ مواقفه ، أما قسطنطين فقد أخذ نفسه بالهجوم على
العدو في حصونه ومواقفه ، وترك الجبال التي تحميهِ من ورائه ،
فكثر القتلى والجرحى في جيشنا ، وهي خطة مخاطرة ومغامرة
لا يركبها إلا القادة اليائس أو المجنون ، ولا أعلم أيّ الرجلين هو ؟
قال أورش : أحسبه يائساً قانطاً ، فإني أشعر كما يشعر
كثير من الناس أن سخطه قد تغيرت منذ موت أبيه تغيراً
عظيماً : وأصبح حزينا منقبضا لا تفارق الكتابة عينيه وجبينه ،
ولم أر في حياته ثاكلاً حزن على فقده حزن هذا المسكين
على أبيه ، قال لازار : ولقد حدثني بعض خدم القصر

وحراسه أنه يستيقظ من نومه في بعض لياليه صارخاً متفزعاً يستغيث ويستنجد كأنما هو يندم على جريمة ارتكباها، أو يخاف شبحاً هائلاً مقبلاً عليه .

فقالت «أنا» : إنكم تظلمون قائدنا ظلماً عظيماً ، فقسطنطين أفضل القواد وأشر فهم ، وما هو بجان ولا بجنون ، فنظر إليها لازار شزراً وقال : بل هو جان أو على وشك ارتكاب جريمة هائلة ، فقد رابى منه مذولى قيادة الجيش عفوهُ عن الأسرى الذين يقدمون إليه وإنزاله إليهم منزلة الأكرام والإعزاز واهتمامه بشأنهم كأنهم ضيوف وافدون ، لأعداء محاربون ، كما رابى منه أكثر من ذلك اعتزاله الناس وانقطاعه عنهم جميعاً حتى عن زوج أبيه التي تحبه حب الأم ولدها وفلذة كبسها ، فإنه مذمجر قصرها وعاش في بيته الجديد الذي يسكنه اليوم لم يزرها مرة واحدة ولادعاه إلى زيارته حتى الساعة .

فقالت «أنا» : أكل أفعال قسطنطين قد أصبحت مريبة عندكم لا تحمل على محمل حسن حتى إكرامه للأسرى المساكين وإشفاقه على ذلهم وضعفهم ؟ قال : ليس هذا رأيي وحدي ، بل رأى أكثر الجنود ، فقد أصبحوا يعتقدون أن قائدهم يقودهم إلى الموت الزوام عمداً لسرّ خفي يضمّره

في نفسه ، وما أحسبهم قادرين على احتمال هذه الحالة زمناً طويلاً ، فاحتدمت « أنا » غيظاً وقالت : إن قسطنطين أشرف بما تظنون ، وهل ترون محالاً أو غريباً أن يحزن المرء على أبيه بعد فقدده ؟ ثم التفتت إلى أبيها وقالت له بسداجة ورقة : أقسم لك يا أبت لو أن مكروهاً أصابك من هذا الجرح الذي في فخذك - لا أذن الله بذلك ولا قدره - لحزنت عليك حزناً يصغر بحاجته حزن قسطنطين على أبيه ، فابتسم أبوها وضمها إلى صدره وقال لها : إننا لا نذهب في أمره يابنية حيث ظننت ، ولا نتهمه بخيانة ولا بمالأة ولكننا نخاف عليه أن يكون قد نفذ اليأس إلى قلبه فضعضعه ، وأن تكون نفسه قد حدثته بمسالمة أعدائه ومواناتهم ، فأعد لذلك العدة التي رآها ، واليأس هو الخديعة الكبرى التي يدسها الشيطان دائماً في نفوس الأمم الضعيفة التي يريد قتلها والقضاء عليها .

وهنا دخل بعض الجنود لقيادة أورش ، وتلاهم آخرون من بعدهم ، واشتتركوا جميعاً في الحديث ، وأنشأ لازار ينفث سموم سعايته ووشاياته في صدورهم ، حتى أجمعوا رأيهم على أن قسطنطين يخون أمته ويمالي أعداءها عليها ، وأن الرأي الصواب أن يرفعوا أمره إلى الملك ليأمر بعزله عن القيادة ويعهد بها إلى غيره ثم انصرفوا .

الدسيسة

بينما كان قسطنطين جالساً صبيحة يوم في غرفته
إذ دخل عليه حارس بابه يستأذنه لبازيليد أرملة أبيه ،
فانقبض صدره واشمأزت نفسه ، لأنه لم يكن رآها ولا أذن
لها بمقابلته منذ مات أبوه حتى اليوم ، فأذن لها بعد لآي ،
فدخلت عليه وحيته وجلست بجانبه وأنشأت تعاتبه في انقباضه
عنها ووحشته منها وسوء رأيه فيها ، وتقسم له بجرمة ذلك الدفين
الكريم الذي كان يحبه ويحبها إنها لا تضم له في نفسها وجدة
ولا حقداً ، ولا تحمل له بين جنبيها غير الحب الخالص والود
المتين ، ثم قالت له ، إني برغم آلامي وأحزاني التي أعالجها
منزلت بي تلك النازلة العظمى حتى اليوم لم أربداً من أن
أتى إليك في هذه الساعة الشديدة عليك راجية أن أعينك
عليها وأهون عليك أمرها ، وربما وجدت السبيل إلى خلاصك
منها ، فالتفت إليها مندهشاً وقال : أى ساعة تريدن ؟ وما هي
الشدة التي أنا فيها ؟ قالت : كأنك لا تعلم أن الخطر الذي
يحيط بك عظيم جداً لا قبل لك باحتماله ، وأن جنودك قد
أصبحوا ينقمون عليك نقمة عظمى ، ويغضونك بغضاً
لا حد له ، ولا تحددتهم نفوسهم بشيء سوى تلبس الطريق
إلى الوصول إليك ليقتلوك ، فاصفر وجهه وقال : وماذا

ينقمون مني؟ قالت: ينقمون منك مخاطرتك بهم في تلك
المعارك الهائلة التي تكاد تفنيهم وتقضي عليهم، وفشلك
في جميع الوقائع التي قت بها منذ وليت قيادة الجيش حتى
اليوم، وقد امتد بهم الحقد عليك إلى سوء الظن بك،
فأصبحوا يعتقدون أنك خائن ممالئ للعدو، وأنتك ما سلكت
هذه الخطة المعوجة في حروبك إلا لتمكن الأعداء من
اجتياز الحدود واقتحام البلاد، فانتفض انتفاضة شديدة،
واربذ وجهه، ونزت في رأسه سورة الغضب وقال: من
ذا الذي يتهمني بالخيانة؟ قالت: جنودك ورجالك، قال:
لأنهم كاذبون فيما يقولون ما في ذلك ريب إن كنت صادقة فيما
تقولين، قالت: ما كذبت عليك قبل اليوم ولا غششتك
في النصيحة، ولقد زادهم حقداً عليك وموجدة أن العدو
قد اجتاز الجبال ليلة أمس، وربما لا يمر يومان أو ثلاثة
حتى يكون قد وصل إلى أبواب العاصمة، وسيصل بريدك
الساعة فينقل إليك هذا الخبر المحزن الأليم، فصرخ صرخة
تظلم دوت بها أرجاء الغرفة ووثب من مكانه تأثراً وهو
يقول: آه يا وطني العزيز وابتدر الباب يريد الخروج منه
فأمسكت يده واجتذبتة إليها وقالت له: مهلاً أين تريد؟
قال: أدعو جنودي وأجمع من تفرق منهم في الشكنات

والقلاع وأذهب بهم إلى الحدود للدفاع عن القلعة الكبرى
فالوطن في خطر عظيم، قالت: لا تفعل فقد خرج الأمر
من يدك، واعلم أن جميع جنودك المقيمين في ثكنات
المدينة وأرباضها قد أصبحوا متمردين عليك لا يطيعونك ولا
يأتمرون بأمرك، فلم يحفل بكلامها وأسرع إلى النافذة وأشرف
منها على الساحة العامة وظل يصيح: أيها الجنود! النفير
النفير، الأهبسة الأهبسة، فما سمع الجند صوته ورأوا وجهه
حتى هاجوا واضطربوا وأخذوا يصيحون داخل القصر
وخارجه: ليسقط الخائن: ليسقط المجرم، فظل يشير إليهم
بيده يحاول إسكاتهم واسترعاء أسماعهم وهم مستمرين
في ضجيجهم وصياحهم لا يهدأون ولا يفترون، فعاد إلى مكانه
يائسا متضععا ليس وراء ما به من الهم غاية.

فدنت بازليد منه وقالت له: قد علمت! الآن أتى
لم أكذبك القول ولم أخدعك، وأتى لم أقدم إليك مقدمي
هذا في هذه الساعة العصية إلا لتخليصك وإنقاذك وإنقاذ
الوطن وأبنائه، فرفع نظره إليها مذهشا وقال: أنت؟ قالت:
نعم أنا، في الوقت الذي لا أجد فيه إلا بجانبك من يأخذ
بيدك أو يعينك على أمرك فاصغ لما أقول: إن الملك
سينور قصرك الساعة ليستجد بك على دفع هذا الخطر الداهم،

وإن شئت فقل ليستعين بك على الاحتفاظ بتاجه الذي
يضمن به ضنه بحياته ولا يحفل بشيء سواه ، وقد علم الجند
ساعة حضوره فهم ينتظرونه في هذه الساحة حتى إذا طلع
عليهم في موكبهم هرعوا إليه ضاجين صارخين يتقدمهم جرحاهم
وزمناهم ورموك بين يديه بتلك التهمة العظيمة التي يردونها
الآن ويصيحون بها في كل مكان ، فإما أن يصدقهم فقد
هلك هلاكاً لا نجاة لك من بعده ، أو يرتاب بهم فلا
يرى له بداً من أن يسلك سبيل الحكمة في مداراتهم ومدافعتهم ،
فيأمر بعزلك عن القيادة والعهد بها إلى غيرك إرضاء لهم ،
وتسكيناً لتأثرهم ، فإن فعل فقد انتشرت لك في الأمة قالة
سوء لا تستطيع أن تمحو عارها عنك أبد الدهر .

فقل يرتعد ويضطرب ويتردد بينه وبين نفسه : رب
ماذا أصنع فالخطب أعظم مما أحتمل ، فاقتربت منه ووضعت
يدها على كتفه وحنث عليه حنق الأم إلى رضيعها وقالت
له بتلك النعمة العذبة الجميلة التي قتلت بها أباه من قبل :
نعم يا بني إن الخطب أعظم مما تحتمل ولم يبق من يديك
إلا أن تسلك تلك الطريق التي شرع أبوك في سلوكها قبل
موته ثم عجز عن الاستمرار فيها إلى نهايتها ، فخرها وخسر
حياته على أثرها ، فنظر إليها مندهشاً وقال : ماذا تريدن ؟

فصمت لحظة ثم استنجدت قوتها وشجاعتها وقالت له : أتدري
يا قسطنطين لم ذهب أبوك إلى شعب تراجان وجلس تحت
القوس الروماني في الليلة التي مات فيها ؟ فرجعت إلى ذهنه
تلك الذكرى المؤلمة وقد بدأ يفهم ما ترمى إليه في حديثها ،
فراعه الأمر وهاله إلا أنه تماسك وتجلد وظل ناظراً إليها بنظرات
جامدة ساكنة أشبه بنظرات الموتى في النزاع الأخير ، فاستمرت
في حديثها تقول : إنه ذهب إلى ذلك المكان ليستقبل
الجيش التركي عند قدومه ويأذن له باجتياز الحدود والوصول
إلى فيدين ، ولو فعل لنجى الوطن من خطر عظيم ولا طفا
نار هذه الحرب التي تلتهم البلاد التهاماً يكاد يقضى عليها .
ولكان اليوم ملكاً جالسا على عرش البلقان ، لا تمثالا
أجوف منتصباً في الميدان ، ولكنه عجز في الساعة الأخيرة
عن الاحتفاظ بقوته وعزيمته ، فما رأى سواد الجيش التركي
مقبلاً نحوه حتى نسى عهوده ووعايقه ، وابتدر الراية الأولى
فأشعل ناراها وأيقظ الجيش من رقدته واستثاره للأهبة
والدفاع ، وما كفاه ذلك حتى جرد سيفه للقتال ، وخاض
المعركة بنفسه ، وظل يقاتل حتى هلك .

فعجب قسطنطين لتلك الجرأة الغريبة التي لا يشتمل
على مثلها صدر امرأة في العالم ولا رجل ، ثم قال لها بهدوء

وسكون لا يعلم إلا الله ما يمكن وراءهما : وبعد فإذا
تريدن ؟ فأطمعها فيه سكونه وهدوؤه ، وخيل إليها أنه قد
استخذى للأمر واستسلم فقالت . إن العهد السلطاني لا يك
بملك البلقان لا يزال باقياً بيدي حتى الساعة وهو مزيل
بتوقيع السلطان ومختوم بختم آل «برانكو مير» فلسنا في حاجة
إلى تغيير حرف منه أو كتابة عهد جديد ، وقد قابلت رسول
القائد التركي ليلة أمس واتفقت معه على كل شيء ، فكن
أعقل من أيك وأبعد منه نظراً ، واعلم أن الترك لا بد
مقتحمو هذه البلاد وأخذوها أبطوا : أم أسرعوا ، فقد اجتازوا
عقبة الجبال اليوم ، وسيجتازون بقية العقبات غداً أو بعد غد ،
مامن ذلك بد ، فخير لك أن تهادنهم وتسالمهم وتتخذ عندهم
يداً تنفعك لديهم غداً وأن تفتح لهم يديك ما استغلق عليهم
من أبواب البلاد بدلا من أن يغلبوك عليها تحتفظ لنفسك
بذلك العرش الذي هو عرشك وعرش أيك من قبلك
لولا طمع ذلك المختلس وفضوله .

إن الجنود يضجون ويصخبون ويوشك الملك أن يحضر
فيرفعوا إليه أمرك ويهتفوا بين يديه بسقوطك وخيانتك ،
فيأمر بالقبض عليك ، وسجنك فاغضب لنفسك وافعل
ماأشرت به عليك لتستطيع أن تأمر أنت بالقبض عليه

وسجنه بعد بضع ساعات ويدين لك البلقان من البسفور
إلى الإدرياتيک .

أما أنا فإني لا أطلب جزاء عندك على نصحي لك
وإخلاصي إليك سوى أن تمنحني لديك منزلة الأم الخنون
وتأذن لي أن أجلس على أدنى درجة من درجات عرشك ،
أخدمك وأمدك برأي ومشورتي ، وأستظل بظلال مجدك
وشرفك حتى الموت ، ثم أخرجت من حقيبتها العهد السلطاني
وأرته إياه فأخذ يقرؤه وهو في يدها حتى أتمه ، فقالت له :
قم الساعة وسافر إلى الحدود وقد جيشك بنفسك وتقهقر به
كأنك تفعل ذلك مضطراً ، وأنقذ نفسك ووطنك من هذا
الخطر العظيم .

هاهي طبول الملك تقترب منا شيئاً فشيئاً ، واعلم أن قلم
القدرة معلق الآن بين أصبعي الله ليكتب به في صفحات
الغيب أحد الحكمين : إما لك بالصعود إلى العرش ، أو عليك
بالهبوط إلى أعماق السجون ؛ فأحسن الاختيار لنفسك
ولا تكن عدوها الأحمق المأفون .

فرفع رأسه ونظر إليها نظرة نارية ملتهبة لو رسمتها ريشة
المصور الماهر لأحرقت القرطاس الذي رسمت فيه ، ثم قال
لها بهدوء وسكون : قد قلت لي ياسيدتي منذ هنيهة إن أبي

قد ذهب إلى شعب تراجان ووقف تحت القوس الرومانى
ليستقبل الجيش التركى عند قدومه ، ويأذن له بالمرور ، فخافه
عزمه ونسى ميثاقه فلم يفعل ، وأنا أقول لك : إنك مخطئة
فى سوء ظنك به ، فإنه لم يزل متمسكا برأيه فى تلك الليلة
محافظاً على عهده حتى حالت الحوائل بينه وبين الوفاء ، قالت :
وما الذى طرأ عليه ؟ قال : طرأ عليه الموت ، خال بينه وبين
ما يريد ، قالت : وهل تعلم كيف مات ؟ قال : نعم أنا أعلم
الناس بذلك لأنه لم يكن حاضراً معه فى تلك الساعة وفى ذلك
الموقف سوى ، فارتعدت ونظرت إليه مندهشة وقالت له :
ألم يمت قتيلاً بيد أعدائه ؟ قال : لا ، بل بيد أصدق أصدقائه ،
بل بيد أقرب الأقرباء إليه وأمسهم به رحماً ، فطاش عقلها
وجن جنونها وصاحت : ماذا تريد أن تقول ؟ قال : أريد
أن أقول : إتنى أنا الذى قتلته ييدى جزاء له على خيائته
لوطنه ، قالت : أنت يا ولده وفلذة كبده ؟ قال : نعم وأنت التى
وضعت فى يمينى ذلك السيف الذى قتلته به ، لأنك أفسدت
نفسه ، وقتلت شعوره ، وأغريته بخيانة وطنه ، وسلبته جوهرة
الشرف الثمينة التى كانت تضىء ما بين جنبيه ، وكانت أكرم
الجواهر وأغلاها ، فلم أربداً من أن قتله لأستنقذ الوطن
من يده ، فأنلى ماشئت أيتها المرأة الشريرة وتعذبنى ،

وتجرع كؤوس الحسرة والندم على ما أفلت من يدك من
أمانيك وآمالك ، وحسبي انتقاماً منك على جريمتك التي
أجرمتها إلى وإلى أبي وإلى الطبيعة أن تعلمي أنني أنا الذي
خبت آمالك ، وهدمت يدي ذلك الصرح العظيم الذي
أنفقت في تشييده أيام حياتك .

نعم أنا الذي قتلته يدي واقترفت أعظم جريمة يقتربها
إنسان في العالم ، ولولاك لما أقدمت على ذلك ، ولا خطر بيالي
أن إنساناً في الوجود يقدم عليه ، ولو كان في استطاعتي أن
أكشف أمرك وأهتك السر عن جريمتك لفعلت ، ولكنني
لا أستطيع أن أفعل إشفافاً على سمعة ذلك الرجل المسكين
الذي قضى عليه سوء حظه أن يكون شريكاً لك في حياتك
وفي جرائمك ، فعيشي معذبة مثل فريسة لآلامك وأحزانك ،
واستنفدي ماء شؤونك حزناً على العرش الذي فاتك ، والزوج
الذي رحل عنك ، واسهرى لياليك الطوال خائفة مرتعبة من
شبح الجريمة التي اخترمتها ، وخيال الدماء التي سفكتها ،
وليطر قلبك خوفاً وهلعاً كلما ذكرت أنك قد وضعت في يد
الولد سيفاً ليقتل به الوالد ، فمات الوالد قتيلاً ، وعاش الولد
معذباً ، ولتطل حياتك على ظهر الأرض لتطول آلامك
وأحزانك ، حتى إذا نزل بك الموت نزل بهيكل يابس من

العظم ، قد أحرقت اللوعات ، وأضوته الحشرات ، وأقرسته
الهموم والأحزان .

وهنا سمعت ضجة عظيمة في الساحة وهاتفون يهتفون :
الملك ! الملك ! فاكثأب قسطنطين وتقبض وجهه ، وتهللت
بازيليد وتطلعت وطوت وثيقة العهد برفق ووضعتها
في جبينها ، ثم قالت له : نعم إتنى سأعيش يا قسطنطين
حزينة باكية كما قلت ما من ذلك بد ، ولكننى لا آذن لك
أن تعيش يوما واحدا بعد اليوم على ظهر الأرض حتى
لا ترى بعينيك مصائبى وآلامى ، وتشمت بهمومى وأحزانى ،
فقد دسست لك الدسيسة فى الجيش حتى نار عليك ووضع
فى عنقك ذلك الغل الثقيل ، غل الخيانة الذى لا خلاص
لك منه ، وسترى الآن بقية تأرى وانتقامى .

وهنا دخل الملك والجنود من حوله يتقدمهم لازار
وهو يصيح وهم يصيحون من خلفه : إنه خائن يامولاي ،
إنه قد مالا الأعداء علينا ، إنه أفتى رجالنا ورمل نساونا ويتم
أطفالنا فأعدنا عليه ، وانتقم لنا منه وللوطن ، والملك يقول :
دعونى وشأنى ، لا أصدق شيئا مما تقولون ، ثم التفت إلى
قسطنطين وقال له : أيها البطل العظيم : إن الوطن فى خطر
وقد جئت أستنجد بك على دفع هذه النازلة التى نزلت بنا ،

وسأكون في المعركة المقبلة جندياً من جنودك ، أقاتل بجانبك ،
وأبارك خطواتك ، ولا تبتئس بما يقول هؤلاء القوم ، فإنهم
لا يعلمون من أمرك شيئاً ، إنا لانعرف اليوم تحت سماء
البلقان بطلاً غيرك ، وما كنا نعرف قبل اليوم بطلاً غير أيك ،
ولا نضمركم في قلوبنا غير الإجلال والإعظام ، لمكانكم من
خدمة الوطن وحمايته والذود عنهم ، أما الحظ الذي فارقك
من تلك الوقائع الماضية فأبشر أن عهد فراقه لا يطول ، وأنه
سيعود إليك بعد أيام قلائل بالوجه الطلق الجميل ، وستمحو
ياتصاراتك المقبلة جميع آثار تلك الهزائم السالفة ، ثم التفت
إلى الجنود وقال لهم : يا أبطال البلقان وحماة ، لاتخذلوا قائدكم ،
ولاتخفروا ذمته ، فهو سيدكم اليوم ، وابن سيدكم بالأمس ،
واعلموا أنني لأصغى إلى تهمة لا أعرف لها برهاناً ولا دليلاً .
فصمت القوم صمتاً عميقاً ، وساد بينهم السكوت هنيهة ،
وقد بدأت مراحل غيظهم وموجدتهم تفتق وتتقاصر ، وهنا
انفرج الجمع وإذا بيازليد تتقدم رويداً رويداً كما ينساب
من مكانه الأرقم نحو موقف الملك حتى مثلت بين يديه ،
وقالت له بصوت عال سمعه جميع الجنود : أنا التي أنهمه
يامولاي ، وأنا التي أقدم لك على تهمة الدليل والبرهان ،
فدهش الملك عند رؤيتها وقال : الأميرة ؟ قالت : نعم يامولاي

أرملة القائد ميشيل برانكومير ، إننى أتهم هذا الرجل بخيانة
قومه وبمآلة أعدائهم عليهم ، وأقول لك : إنه كتب بينه
وبينهم عهداً على أن يفتح لهم أبواب البلاد فى الساعة التى
يريدونها فيمنحوه فى مقابل ذلك عرش البلقان وتاجه ، وقد
دعانى الساعة ليشركنى معه فى هذه الجريمة التى يريد اقترافها ،
ويسألنى أن أساعده عليها ، فلم أربدا من أن أرفع أمره
إليك ، أما البرهان الذى تريده فيها هو ذا ، ومدت يدها
إليه بتلك الوثيقة ، فتناولها الملك ذاهلاً وأخذ يقرؤها وهو
يرتعد ويرتجف ويقول فى نفسه : ماذا أدرى ؟ إخلاء الحدود !
اجتياز الجبال ! العرش ! التاج ! ختم برانكومير !
يا للهول وبالفظاعة ! ثم نظر إلى قسطنطين فإذا هو تمثال
جامد لا يتحرك ولا يطفرف ، فتقدم نحوه خطوة وقال :
ماهى كلمتك يا قسطنطين ؟ فصمت ولم يقل شيئاً ، فالتفتت
إليه بازليد وقالت له : أتستطيع أن تنكر شيئاً مما أقول ؟
فأوثقت وثاقاً لا يستطيع معه قبضاً ولا بسطاً ، إلا أنه رفع
رأسه ونظر إليها نظرة غريبة مبهمه لم يعلم غيرها ماذا يريد
بها ، ثم عاد إلى صمته وإطرافه فهاج الجند وأخذوا يصيحون :
القتل القتل ! الانتقام الانتقام ! وظل الملك يشير إليهم بيده
يدعوهم إلى السكون والهدوء حتى هدأوا ، فتقدم نحوه

قسطنطين خطوة ثانية ووضع يده على كتفه وسأله مرة أخرى ، ماذا تقول يا قسطنطين ؟ دافع عن نفسك ، فإن سكوتك حجة عليك ، لا تصمت ولا تطرق ، وقل كلمة واحدة فإنني أصدقك في كل ما تقول ، فاستمر في صمته وإطراقه وهو يقول في نفسه : كيف أدافع عن نفسي ، وأي سبيل أسلكه إلى ذلك ، والسبيل جميعها وعرة شائكة لا تقوى قدمي على اجتيازها ، إني لا أستطيع أن أبرئ نفسي إلا إذا اتهمت أبي وقد قتلته مرة فلا أقتله مرة أخرى ، ثم ابتسم ابتسامة الممتعض وقال في نفسه : قد كنت أطلب الموت بكل سبيل حتى جاءني يسعى إلىّ بقدميه ، فلم أخشاه وأرتاع منه ؟ فليكن ما أراد الله أن يكون ، ثم رفع رأسه إلى الملك وقال له : ليس عندي ما أقوله لك ياسيدي فاصنع بي ما تشاء .

فصاح الجمهور : ليسقط الخائن ! ليقتل المجرم ! وهجموا عليه ليفتكوا به ، فاعترض الملك طريقهم وقال لهم : دعوه وشأنه فإن أمره موكل إلى مجلس القضاء ، أما نحن فليس بين أيدينا إلا أن نفكر الآن في الطريق إلى الدفاع عن وطننا وحمايته ، ودفع هذه النازلة الملحة بنا ، فسيروا بنا أيها الجنود الأبطال إلى ساحة الحرب وأنا قائدكم .

ثم التفت إلى الخراس وأمرهم بالقبض على قسطنطين
والذهاب به إلى السجن حتى يفصل القضاء في أمره .

فهمت به قسطنطين وقال : لى كلمة واحدة أحب أن
أقولها لك يامولاي ، فذعرت بازليد وارتعد لازار واشرب
القوم بأعناقهم والتفت إليه الملك وقال : ماذا تريد أن تقول ؟
قال : أنت تعلم يامولاي أتى جندي قديم ولدت في ساحة
الحرب وقضيت حياتي في ميادينها ولا أمنية لى في الحياة
غير أن أموت فيها ، وأنت الآن قائد الجيش وصاحب الأمر
والنهي فيه ، فأذن لى أن أسير فى ركابك جندياً صغيراً ،
لأقائدا ولا أميرا ، لأقاتل معكم حيث تقاتلون ، ولك على
عهد الله وميثاقه ألا أعود من تلك المعركة إلا منتصرا
أو محمولا على الأعواد إلى حيث آوى إلى منزلى الأخير
الذى لارجعة لى منه على أن أكفر بذلك عن زلتى التى زلتها
وأنتقم من نفسى بنفسى ، فعجب الملك لأمره وظل يردد
نظره فى وجهه هنيهة وكأن نفسه كانت تحدثه ببراءته وطهارته
إلا أنه لم يلبث إلا قليلا حتى زوى وجهه عنه وقال له :
لا أستطيع أن أذن لك بشيء فالموت فى ساحة الحرب
منزلة لا يناها إلا الأمانة المخلصون .

فتنفس الجمع الصعداء وخرج الملك تحيط به جنوده
وحرّاسه وهو يردّد بينه وبين نفسه : وارحمته لك أيها الفقي
المسكين !

فتقدّم الحرّاس إلى قسطنطين فقيّده و جاءت بازيليد
فوقفت بجانبه وقالت له بصوت خافت لا يسمعه سواه :
نعم إني سأقضى ما بقى من أيام حياتي حزينة باكية متألّمة كما
قلت ، ولكنني قد انتقمتم لنفسي وحزبي ذلك وكفى ، فلم
يرفع نظره إليها احتقاراً وازدراء بل رفع رأسه إلى السماء
وقال : قد كنت أسألك الموت يا رب في كل حين وأضرع
إليك فيه ليلي ونهارى ، فبعثت به إلىّ ، ولكن في أقطع
صورة وأهولها ، فامدد إلى يد معونتك ورحمتك لأستطيع
أن أشرب الكأس حتى ثملتها ، وخذ يدي في شدتي فقد
تخلى الناس جميعاً عني ، وأصبحت أحتمل ما أحتمل من
الآلام وحدي ، وليس بجانبى من يخفف عني أو عني ،
أو يمسح بيده دموع من دموعى .

فخرجت ميلتزا من وراء ستار كانت محتبّة في طياته
وتقدّمت نحوه وجثت تحت قدميه الموثقين وقالت له :
لست وحدك يا مولاي فها أنذا ، قهّل وجهه بعد عبوسه
وقال : أحمّدك اللهم حمداً كثيراً ، ثم خرج مع الجنود يرسف

في قيوده حتى وصلوا به إلى السجن فأودعوه إياه وأوصدوا الباب من دونه ، فربضت ميلتزا على عتبة الباب ربوض الكلب الأمين على قبر سيده الدفين ، وأنشأت تندبه وتبكيه بكاء تهتز له جوانب الأرض وتتداعى له أركان السماء .

التمثال

انتصر الملك في الواقعة التي حضرها وقاد فيها الجيوش بنفسه انتصارا عظيما كان الفضل الأكبر فيه لتلك الروح الدينية التي كان يذبها في نفوس جنده أثناء المعركة ، فقد كان يمشى بين الصفوف بطيلسانه الأسود والصليب في يده يهتف باسم المسيح والمسيحية وينادى : دافعوا يا أبناء يسوع عن دينكم وكنيستكم ، واعلموا أنكم إن غلبتم اليوم على أمركم فلن تقوم للصليب قائمة أبد الدهر ، وهم يستبسلون ويستقتلون ، ويصبرون للموت صبر الكرام ، حتى برقت لهم بارقة النصر فأطبقوا على جيوش العدو من كل جانب فتقهقرت أمامهم إلى ما وراء الحدود ، ونحلت عن جميع المعابر والجبال التي اجتازتها بالأمس ، فاحتفل الشعب بهذا النصر احتفالا عظيما دام عدة أيام ، ولم يكن للناس حديث فيه سوى حديث قسطنطين وجريمته التي اجترعها والجزاء الذي سيلقاه في سبيلها ،

وكلهم يتمنى بجدع أنفه أن يشاهد مصرعه ، ويرى دماؤه
تتدفق من بين لحييه .

ولم يزل هذا شأنهم حتى دنا اليوم الذي يجتمع فيه
مجلس القضاء للنظر في تلك القضية ، فذهب الملك ليلة
المحاكمة إلى السجين في سجنه وخلا به ساعة يسأله عن
جريمته وشركائه فيها وأعوانه عليها ، وحاوله في ذلك محاولة
كثيرة فلم ينطق بشيء ولا دافع عن نفسه بحرف واحد ،
حتى عي الملك بأمره فأمر باخراجه من السجن إلى الساحة
العامة المقام فيها تمثال أبيه ، وأمر أن يشد بأغلال إلى
قاعدة التمثال نكابة به وتمثيلا ، ثم قال له : انظر أيها الخائن
ماذا بنى أبوك لنفسه من المجد ، وماذا صنعت بك بذلك
البناء الذي ابتناه ، وتركه وانصرف .

فلما انفرد بنفسه أطرق ساعة يفكر في شأنه وفي مصيره
الذي صار إليه ، ثم رفع رأسه إلى التمثال ، وكان الليل
قد هدأ وسكن ونامت كل عين فيه حتى عيون العسس
والحراس ، فأنشأ يناجيه ويقول :

هنيئاً لك أيها الرجل مجدك وعظمتك وتمثالك الشامخ
الرفيع الذاهب بعلوه في آفاق السماء .

هنيئاً لك الصيتُ البعيد والشهرة الذائعة والشرف الخالد
المسجل لك في صفحات التاريخ ، وأن الناس لا يمزون بتمثالك
حتى يجثو تحت قاعدته جثيهم تحت قدمي الإله المعبود .

أترى بعد ذلك أنك مظلوم أو مغبون أو أن الضربة
التي أصابتك من يدي قد حرمتك شيئاً في هذه الحياة تندبه
وتأسف عليه ؟

لقد كنت في الساعات الأخيرة من أيام حياتك ، ولم يكن
بينك وبين الانحدار إلى قبرك إلا بضع خطوات قصار ،
فكل ما كان مني لك أتى أنقذتك من تلك الميته الدنيئة
السافلة التي كنت تريد لها لنفسك ، وقدمت إليك بدلا منها
ميته شريفة مقدسة ترمقها العيون وتتقطع من دونها الأعناق ؟
وألبيتك تاجاً أشرف من ذلك التاج الذي كنت تطلبه
وتسعى إليه ، وأجلستك على عرش أرفع من جميع عروش
الأرض ، وهو عرش التاريخ .

لا تستبق في نفسك شيئاً من الضغن على ، ولا تضر في
في قلبك وأنت في عالم الحقيقة المجردة الذي لا يخالطه كذب
ولا رياء غير ما يجب على المريض والميل أن يضمره لطبيبه
الذي شفاه من دائه ، وأنقذه من شقائه ، فإن كان لا بد لك

أن ترى أنتى قد أجمت إليك ووترتك ، فهاأنذا اكفر عن
جريمتى بأعظم ما كفر به مجرم عن جريمته .

أنظر يا أبت ماذا صنعت : فعلتلك التى فعلت بولدك ،
ها هو الغل يحيط بعنقه حتى كاد يخنقه ، وها هى القيود تعض
قدميه وتدميهما ، وها هو السيف مجرد فوق هامته لا تطلع
الشمس من مشرقها حتى يسقط عليها فيفصلها عن جثتها ،
وها هم الناس جميعا رجالا ونساء كبارا وصغارا يلعنونه بألسنتهم
وقلوبهم فى كل مكان ، ويضمرّون له من الحقد والبغضاء
مالو امتد إلى جسمه لأحرقه وأحاله رمادا باردا .

أنت المجرم وأنا المعاقب ، أنت الخائن وأنا المأخوذ
بحياتك ، أنت المتمتع بنعمة الشرف العظيم الذى لا تستحقه ،
وأنا المتسرّبل بسربال الإهانة الدائمة التى لا أستحقها ، لقد
أخطأ القدر فى أمرنا مرتين ، فرفعك من حيث تستحق
الوضع ، ووضعنى من حيث أستحق الرفع ، ولو أنه أنصف
فى حكمه بيننا لأخذ كل منا مكان صاحبه ، فأصبح التمثال لى ،
وأصبح السجن لك .

هنيئا لك مجدك وشرفك وصيتك وسمعتك ، وما أهنيك
تهنئة الهازئ الساخر بل تهنئة الفارح المغتبط ، لأنك أبى ،

ورئيس أسرتي، وسيد قومي وحييب إلى جدّا أن يعيش
أبي عظيما في حياته وبعد مماته .

إن آلامى يا أبت عظيمة جدّا لا تستطيع أن تحملها
نفس بشرية في العالم ، ولكن يهونها علىّ أتى موت من
أجلك ، وفي سبيل مجدك وشرفك ، وأتى لم أخرج من الدنيا
حتى رأيت تمثالك العظيم مشرفا من علياء سمائه على جبال
البلقان وهضابها كما تشرف الشمس من أبراجها على ما تحتها .
ما أنا بنادم على ما كان ، ولا خائف مما يكون ، فليأت
الموت إلىّ في الساعة التي يريدّها ، فقد قتت بواجبي لك
ولبلادى ، وحسبى ذلك وكفى .

كان لا بدّ لي أن أقتلك ففعلت ، ولكننى قتلتك فيجب
أن أقتل بك .

كلانا أجرم وكلانا لقي جزاء إجرامه .

أجرمت إلى الوطن فانتقمتم له منك ، وأجرمت إلى
الطبيعة فن العدل أن تنتقم لنفسها منى ، فما ظلم أحد منا
صاحبه ولا اعتدى عليه .

أرفع رسك أيها الرجل تها وعجبا ، وزاحم بمنكيك أجرام
السماء وكواكبها ، فقد غسل ابنك بدمه جرمك وعارك ، فإن
لم تكن شريفا بنفسك فحسبك شرفاً أنك والد الولد الشريف .

ولم يزل في مناجاته هذه حتى مضت هدأة من الليل
فالتف بردائه ووضع رأسه على قاعدة التمثال وأسلم نفسه
إلى نوم طويل .

النهاية

ازدحم الناس يوم المحاكمة في الساحة الكبرى ازدحاما
عظيما ينتظرون عودة الملك من مجلس القضاء ليعلن حكمه
أمام المتهم، والمتهم هادئ ساكن تحت قاعدة التمثال لا ينتظر
شيئا، لأنه يعلم أن الموت جزاؤه الحتم وقد وطن نفسه عليه
فلم يعد يحفل به .

ولمنهم لكذلك إذ أقبل الملك تحيط به حاشيته فأشرأت
إليه الأعناق لسماع كلمته، ولم يزل سائرا بين الصفوف حتى
وقف أمام المتهم فنظر إليه نظرة طويلة ثم صاح بأعلى صوته :
يا قسطنطين برانكومير ! إن الجريمة التي اقترقتها عظيمة جدا
لا يني بها قتلك وسفك دمك ، لذلك رأى مجلس القضاء
أن يحكم عليك بالحياة بدلا من الموت ... فقاطعه الجماهير :
الموت ! الموت ! لا بد من قتله ! لا يمكن أن يعيش !
فأشار إليهم بالهدوء والسكون حتى يسمعوا بقية كلامه ،
فهدأوا فاستمر يقول : وأن تظلّ طول أيام حياتك مقرونا
بأغلالك هذه إلى قاعدة تمثال أبيك ليتردد وجهه في وجهك

ليلك ونهارك فتموت في مكانك حياء منه وخجلا ، وأن يؤذن
لكل ما ركبك من عليه الناس وغوغائهم أن يبصق على
وجهك ويصفعك على قذالك ، وينال منك ما يشاء إلا
أن يسلبك حياتك .

فصاح الجاهير : يعيش الملك ! يحيى العدل ! يسقط
الخائن ! وظلوا يرددون هذه الكلمات وأمثالها وقتاً طويلاً .
هنا ذرفت عينا ذلك الرجل العظيم الذي لم يبك في يوم
من أيام حياته لضربة سيف ، أو طعنة رمح ، أو رشقة سهم ،
وعلا صوت نحيبه ونشيجه كما يفعل النساء الضعيفات
في مواقف حزنهن وتكلمهن ، وما كان مثله من يبكي أو يندرف
دمعة واحدة من دموعه لو أن الذي كُتب له في صحيفة
الغيب من الشقاء ، كان الوقوف بين السيف والنطع
أو السقوط بين آلات العذاب تنال من جسمه وأطرافه
ما تشاء ، ولكن الشرف ، شديد جداً على صاحبه أن تنزل
به نازلة مذلة ، أو يتصل به ظفر جارح من أظفار الهوان ،
فإذا شعر بشيء من ذلك هاله الأمر وراعه ، وخارت
عزمته ووهنت قوته ، فبكى بكاء الضعفاء ، وأعول إعوال
النساء ، ولقد رضى قسطنطين من حظه من الحياة بالموت
فراراً من ألعار الذي لحقه ، وهرباً من نظرات الناظرين

إليه ، وموجدة الواجدین علیه ، أما وقد علم أنه سيعيش
والعارَ معا رفيقین متلازمین ، لا یفترقان ولا ینفصلان ، فلم
یبق له بد من الجزع ، ولم یبق بین یدیه سبیل غیر البكاء ،
فبکی ماشاء الله أن یفعل ، وأخذ یرددَ بینہ | و بین نفسه :
یا لبؤس ! ویا للشقاء ! لقد استحال علیّ کل شیء حتی
الموت ، ثم رفع طرفه إلى السماء وقال بصوت خافت متقطع :
رحمتک اللهم وإحسانک فقد أصبحت عاجزاً ضعيفاً لا أملك
من شؤون نفسی شیئاً ، فامدد إلى ید عنايتک ولطفک
لاستطیع أن أتمم واجبی إلى النهایة .

وهنا وقف لازار فوق هضبة مرتفعة ، وكان لا يزال
رأس الفتنة وشعلتها ، وأخذ یصرخ بصوت عال قائلاً : إن
رأى مولانا المملک أن يأذن لنا بتنفيذ أمره الساءة فقد
أو شکت صدورنا أن تنفجر ! فصاح الجمهور من ورائه
صیخته ، ودعّوا بمثل دعوته ، فاصفر وجه المملک وارتجفت
أطرافه ارتجافاً خفیفاً ، ثم قال بصوت خافت متهاافت : لكم
ما تشاءون ، وتحول من مكانه یرید الانصراف .

وهنا برزت میلترامن بین الجماهير واندفعت نحو قسطنطين
تسبق المندفعین الیه ، وهی تقول : فلیبق لك أيها المسکین علی
الأقل قلب واحد یرحمک و یعطف علیک ، وضمته إلى صدرها

كأنما تريد أن تقيه بنفسها ، فسمع الملك صوتها فالتفت فرآها ولم يكن يعرف من شأنها شيئاً ، فعجب لأمرها وأشار إلى الجماهير بالسكوت حتى يعلم ما خطبها ، ثم مشى نحوها وقال لها :
أتعلمين أيها الفتاة من هذا الذى تحمين ؟ وما جريمته التى اقترفتها ؟ فرفعت رأسها إليه وألقت عليه نظرة الليث فى عرينه وقالت له : لا أعلم من أمره شيئاً سوى أتى أحبه ولا آذن لأحد أن يناله بمكره وفى بقية رمق من الحياة ، قال : إنه ارتكب جريمة الخيانة الكبرى للأمة والوطن ، وقد حكم عليه مجلس القضاء بالتعذيب ولا بد من إنفاذ حكمه ، قالت : إن الحب فوق العدل وفوق القانون وفوق كل شيء فى العالم ، فزقونى إرباً إرباً لتستطيعوا أن تصلوا إليه .

فلمعت فى ثغر قسطنطين ابتسامة فى وسط هذه الدجنة الحالكة من الهموم والأحزان وضمها إلى نفسه وقال لها :
شكراً لك يا ميلترا فقد أحييت نفسى الميتة وسريت عنى همومى وآلامى ، زردى عنى يا صديقتى ، وصوفى وجهى من العار الذى يريدون أن ياصقوه به ، فلم يبق لى فى العالم من يرحمنى أو يعطف على سواك .

وأخذ الجماهير يصيحون : اقتلوهما معاً ، مزقوا جسميهما بالسيوف ، انثروا أشلاءهما فى الفضاء ، ثم تدافعوا نحوهما تدفع

الصخور الهائلة من أعالي الجبال ، فصاحت ميلتزا : أيتها
الوحوش الضارية ، والخلائق الساقطة ، مهما كثر عددكم ،
وعظمت قوتكم ، فإنكم لن تستطيعوا أن تصلوا إليه أو تلحقوا به
إهانة من الإهانات التي تضررونها في نفوسكم ، فإن أيتيم
إلا أن تفعلوا فاعلموا أنني أنا الفتاة الضعيفة المسكينة قادرة
على أن أخلصه من أيديكم ، فلم يحفلوا بكلامها ولم يفهموا
غرضها واستمروا في اندفاعهم وتدفعهم .

وهنا حدث ذلك الحادث الهائل الذي شخصت له
الآبصار ، وذهلت له العقول ، وجمدت لمنظره الدماء في العروق ،
فقد علمت ميلتزا أن القضاء واقع لا مفر منه ، وأن القوم
لا بد بالغون من قسطنطين ما يريدون ، وأن لا طاقة لها
بحمايته والذود عنه ، وهاها هو لا عظيم ولا عظيم ، وكبر في نفسها أن ذلك
الوجه الشريف المتألى بنور الفضيلة والكرم والطهارة
والبراءة يصبح هدفاً دينياً لهؤلاء الغوغاء الثائرين ، يلطمه من
يلطم ، ويصق عليه من يبصق ، فلما أصبحوا على مقربة
منها ، و يبق بينهم وبينها إلا بضعة وثبات ، حنت عليه
وهمست في أذنه قائلة : في استطاعتك يا سيدي أن تنجي
نفسك بكلمة واحدة تعترف فيها بكل شيء ، فرفع طرفه
إلى السماء ، ثم ألقاه على تمثال أبيه ، ثم نظر إليها نظرة دامعة
حزينة وقال : « لا أستطيع » .

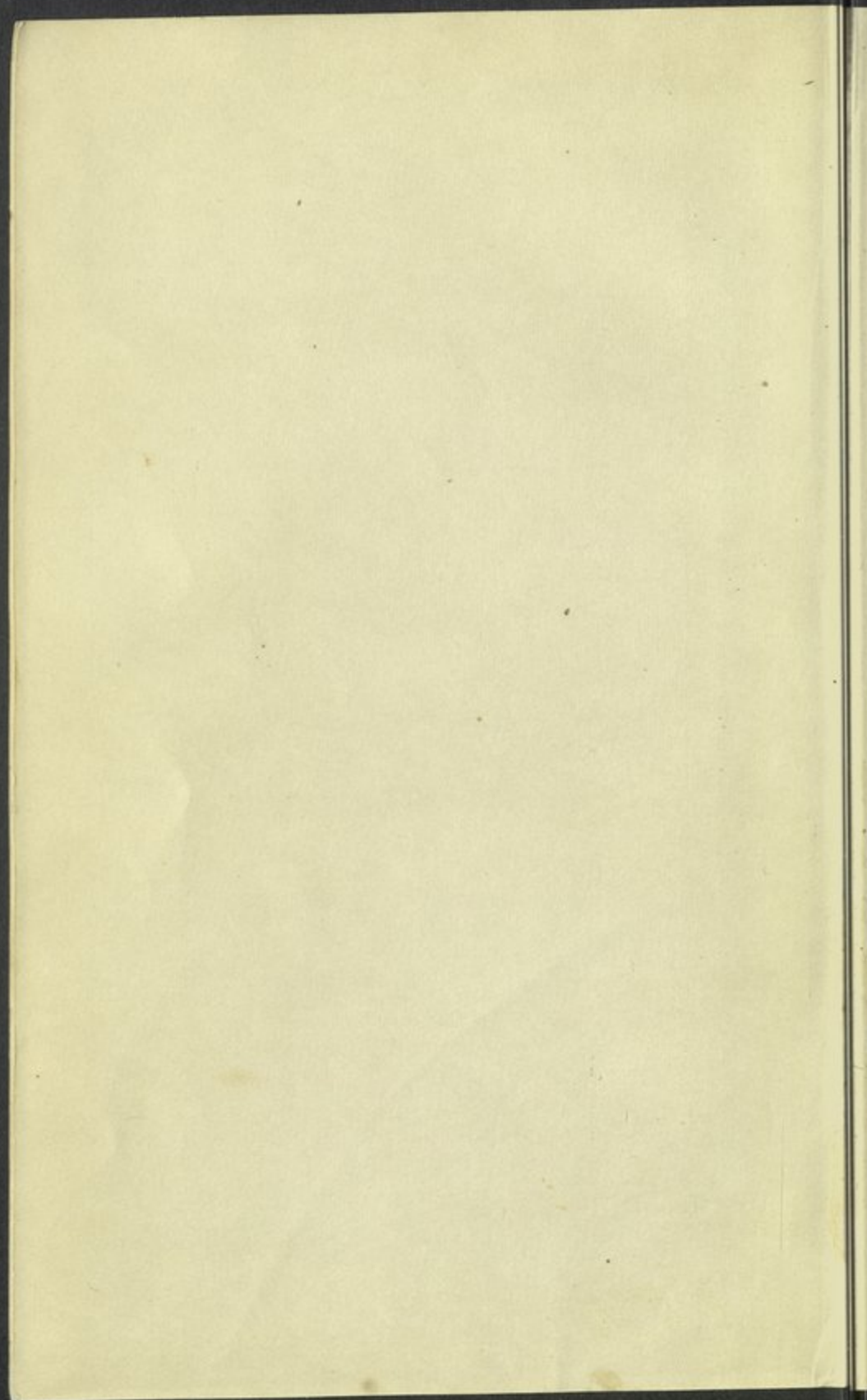
فجرت من منطقها خنجرها الذي كانت قد استهدته
إياه فيما مضى ورفعته في الهواء ثم طعنته به في صدره طعنة
نجلاء وهي تقول : مت شريفاً أيها الرجل العظيم كما عشت
شريفاً ، وسأبعك إلى سمائك التي تصعد إليها ، فسقط مضرجاً
بدمائه وهو يقول بصوت ضعيف متقطع : شكرالك يا ميلترا .
وكان القوم قد بلغوا موقفهما : فرفعت الخنجر مرة
أخرى وطعنت به نفسها ، فترنحت قليلاً ثم سقطت على
مقربة منه ، وكان لا يزال يعالج السكرة الأخيرة ، ففتح عينيه
فراها ، فأخذ يسحب نفسه سحبا حتى بلغ مصرعها ، فألقى يده
عليها وظل يجذبها نحوه كأنما يحاول أن يضمها إلى نفسه
فلم يستطع ، فسقط رأسه على صدرها فشعرت به فضاءت
ما بين شفيتها ابتسامة ضئيلة لم تلبث أن انطفأت وتغلغلت
في ظلمات الموت ، وظلا على هذه الحالة حتى فاضت
نفساهما .

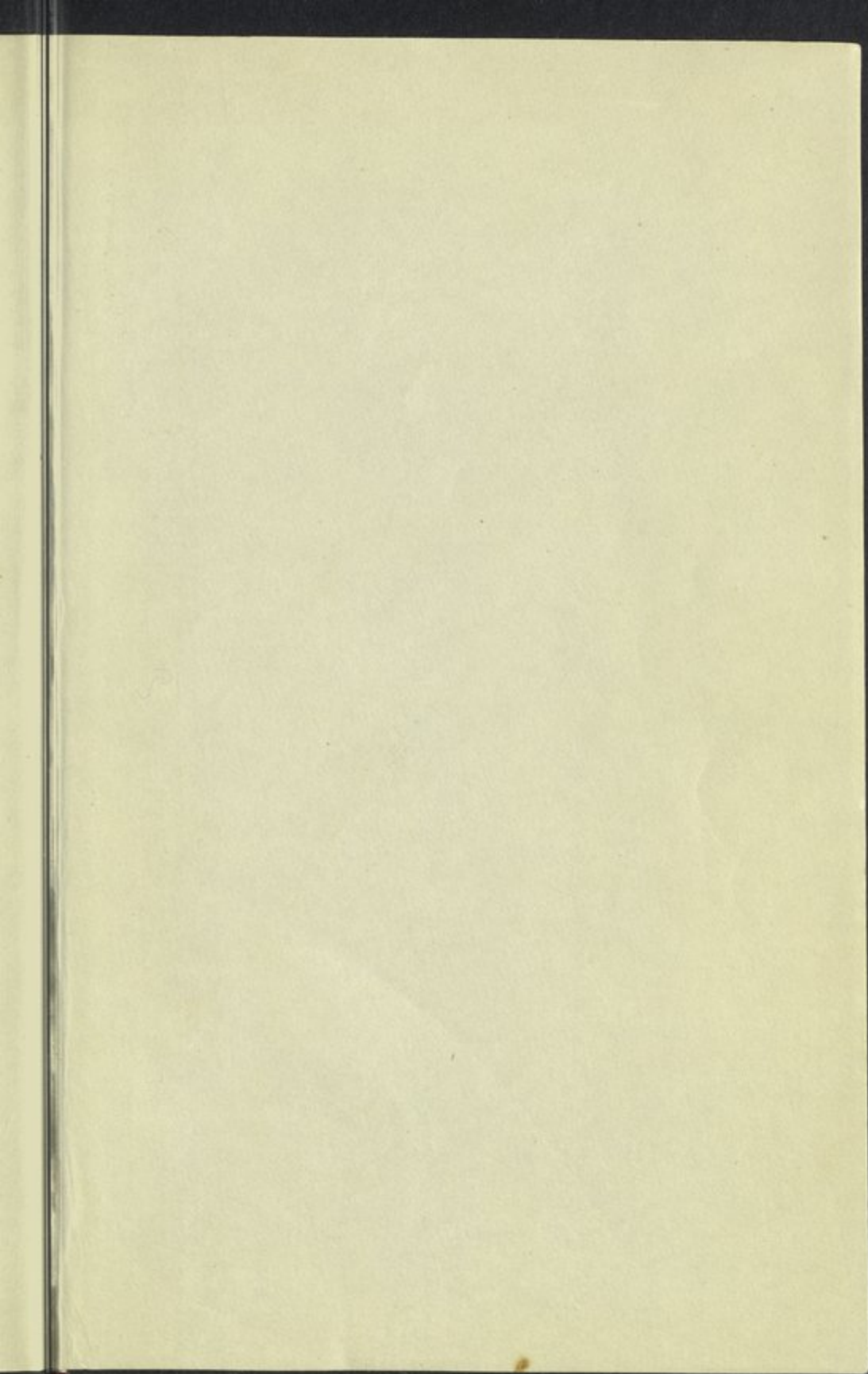
فأثر هذا المنظر الرهيب في نفوس الجماهير ، وسكنوا
في مواقفهم سكوناً عميقاً لا تتخلله نامة ولا حركة ، وظلوا على
ذلك ساعة حتى نطق الملك بصوت خشن أجش تخالطه رنة
الحزن والأسف قائلاً : أيها المسيحيون ، صلوا جميعاً لهذين
البائسين الشقيين واسألوا الله لهما الرحمة والغفران .

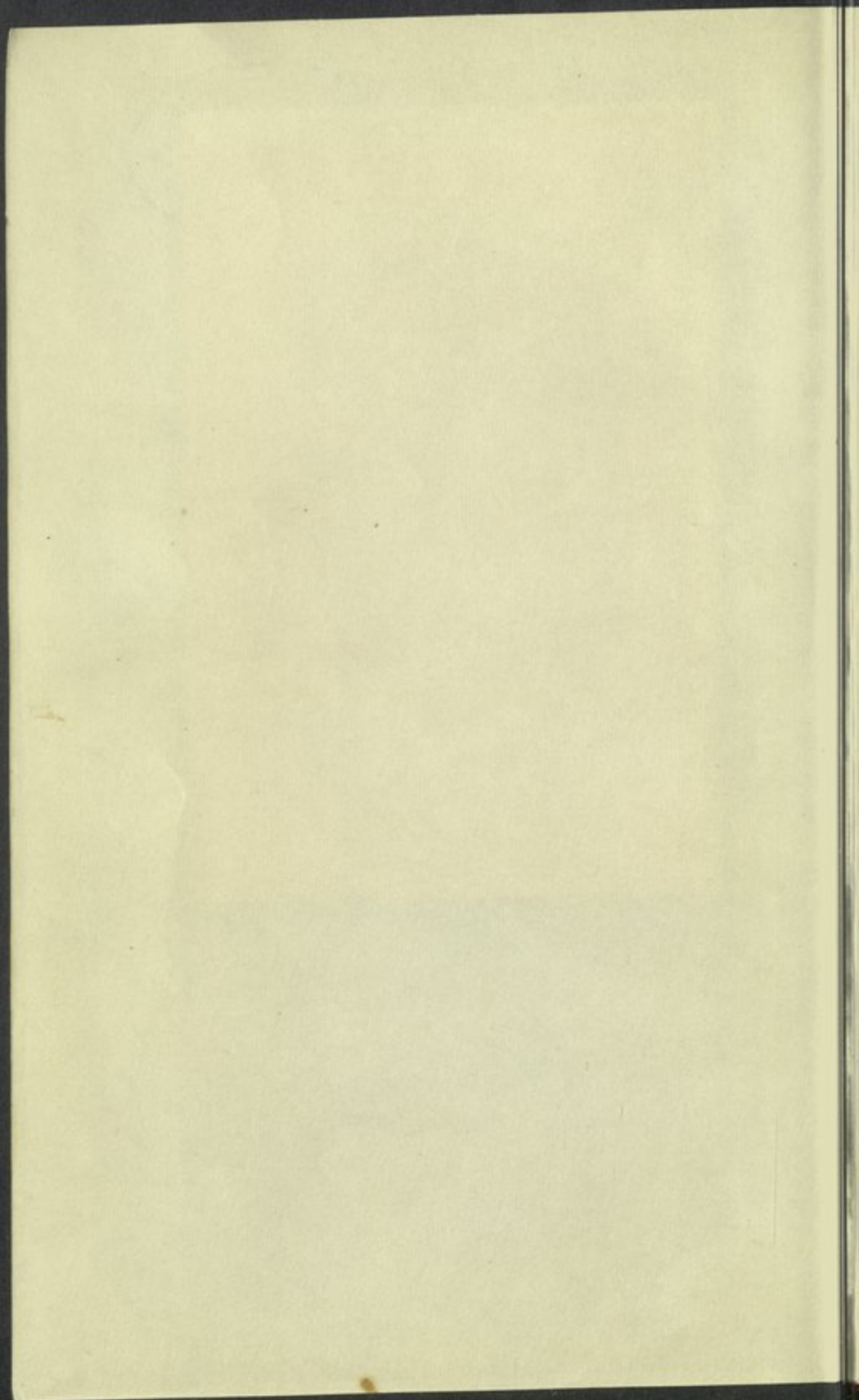
ثم رفع قلنسوته وجثا على ركبتيه ورفع القوم قبعاتهم وجثوا
حول الجثتين وأخذوا يتلون صلواتهم بنغمة حزينة مؤثرة
كانما هم يبكون عزيزا عليهم ، أو شهيدا من شهدائهم ، وما
فعلوا غير ذلك لو كانوا يعلمون .

ظلت هذه الحقيقة مجهولة لايعلوها أحد من الناس
خمسة وثلاثين عاما حتى حضر بازيليد الموت فظلت تهذى بها
في مرضها ، وترددها في يقظتها وأحلامها ، وتألم لذكرها
ألما شديدا على مسمع من كاهنها وعوادها حتى فاضت
روحها ، فعلم الناس ولكن بعد عهد طويل وبعد أن تبدلت
شؤون البلقان غير شؤونه أن « قسطنطين برانكوميير » أشرف
الناس وأفضلهم ، وأعظمهم وطنية وإخلاصا ، لأنه ضحى أباه
في سبيل إنقاذ وطنه ، ثم ضحى نفسه في سبيل إنقاذ شرف
أبيه ، فبلغ في وطنيته وشرف نفسه الغاية التي لا غاية وراءها .

تمت









DATE DUE

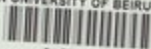


13 DEC 1987



المنقوطة، مصطفى، لطفى
في سبيل الناج: وهي خلاصة رواية تمت

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01036551

848
C785poA
1938
c.1